

المقتطف

الجزء الرابع من المجلد الرابع بعد المائة

١ أبريل سنة ١٩٤٤

٨ ربيع ثاني سنة ١٣٦٣

من أسرار الكون المادي

لا تزال الاشعة الكونية

لغزاً كونياً

ليس بين مباحث الطبيعة والفلك ، في العصر الحديث ، ما هو أجلُّ شأنًا وأفتن لبّ من البحث في الاشعة الكونية، لتبيّن قوتها وفعلها ، واستشفاف صلتها ببداية الكون ونهايته. فهي اذا قيست بالمعهود المألوف من ضروب الاشعة كانت أقواها فعلاً وأشدّها اختراقاً للأجسام . والآراء الخاصة بطبيعتها وأصلها ومصدرها ومعناها الفلسفي الأوسع ، مختلفة وقد تكون متناقضة . ففريق يقول انها تحمل، في ثنايا أمواجها القصيرة ، أنباء الخليفة في رحاب الكون المادي ، وفريق يذهب الى انها تحمل رسالة فناء العوالم واضمحلال الشموس . وبعض يقول إنها أمواج أو مقادير «كوانتات» من الضوء تعرف باسم الفوتونات وآخرون يقولون انها كهيربات . وتزعم جماعة انها صادرة الينا من رحاب الفضاء البعيد ، بين النجوم والسدم ، ويقنع باحث واحد على الأقل بأنها لا تتعدى في تولدها حدود الدثار الغازي الذي يحيط بالأرض . على انهم جميعاً مقتنعون بأنها تحمل رسالة خطيرة ، فهم لذلك مقبلون في لفة على السعي لحل الرموز التي كتبت بها الرسالة

كيف يقيم العلماء الاشعة الكونية وكيف يقيسونها ؟. صنعت لذلك - في تجارب البجائية كطن - كرة من الصاب ، قطرها بضع بوصات ، يملأها غاز الأرغون مضغوطاً ضغطاً عالياً . والاشعة الكونية حين تتحرك هذا الغاز ، تجعله قابلاً لبعض الشيء لايصال الكهرمانية

والتيار الكهربائي الضعيف الذي يخترقه يقاس بجهاز (الالكترومتر) مرهف الإحساس . ولكن الاشعة المنطلقة من الراديووم وغيره من العناصر المشعة ، تفعل بالغاز فعل الاشعة الكونية ، لذلك تحاط كرة الصلب هذه بجدار كثيف من الصلب ، لانه يحجب أشعة الراديووم وأشباهاها ولا يحجب الاشعة الكونية

فاذا أخذت هذه الكرة الى نفق عميق ، وجد الغاز الذي فيها لا أثر فيه لسريان تيار كهربائي . ولكن اذا ظلت على سطح الكرة ، لوحظ ان تياراً ضئيلاً يخترقه ، ويمكن أن يقاس هذا التيار بعدد خاص . وسبب ذلك ان الاشعة الكونية لا تستطيع ان تخترق طبقة كثيفة من قشرة الأرض وجداراً كثيفاً من الصلب ، لتؤثر في الغاز ، حين يكون في النفق العميق . فاذا نقلت كرة الصلب هذه ، الى قمة جبل ، او رنعت في الجو بمنطاد ، زاد مقدار التيار الذي يخترق الغاز ، وهذا يثبت ان الاشعة الكونية هي التي تفعل في الغاز فتهميج ذراته فتجعله قابلاً لايصال الكهرباء ، فهي أقوى في الجو منها على سطح الأرض وقد ذهب كهنن وأعوانه ، من سنوات ، الى بلاد بيرو في أميركا الجنوبية لأن فيها سكة حديد تخترق الجبال ، وعند أعلى موقع تتنازه سكة الحديد ، نفق يخترق الجبل ، وهو يرتفع ثلاثة أميال عن سطح البحر . فلما نقلت الكرة المصنوعة خاصة لقياس الاشعة الكونية ، الى داخل النفق ، كاد أثر الاشعة الكونية في غاز الارغون لا يدرك حتى بأدق الآلات وأشدّها إحساساً . فلما خرجوا بها خارج النفق ، بدا أثر الاشعة الكونية جلياً وهناك طريقة أخرى لتبيين الاشعة الكونية ، تعرف بطريقة « انبوب الاحصاء » أو « العداد » . وهو كرة من زجاج ، وقد تكون مستطيلة ، يملأها غاز لا يوصل الكهرباء في حالته السويّة . فاذا فعلت به الاشعة الكونية ، أصبح موصلاً للكهربائية . ولكن بدلاً من أن يقاس التيار الذي يخترق الغاز بجهاز (الالكترومتر) يقوّى التيار مليون مليون ضعف ، ثم يمر في مكبر للصوت ، فكلما اخترقت شعاعة من الاشعة الكونية هذا الانبوب ، سمعت نبرة معيّنة في مكبر الصوت

أهم صفة تنصف بها هذه الاشعة العجيبة هي قدرتها على اختراق الاجسام . فنحن نعلم ان الاشعة السينية (أشعة اكس) تستطيع اختراق الاجسام المادية ، فتخترق كفّ الانسان أو جسمه ، ولا تخترق عظامه ، فيبدو الهيكل العظمي في صورة ، صورها الطبيب المختص للجسم أو لأحد أعضائه . ولكن طبقة من الماء سمكها بوصة واحدة تحجب نصف شعاعة من الاشعة السينية . وطبقة من الماء سمكها قدم واحدة تحجب نصف شعاعة من أشعة جّمّا . أما قدرة الاشعة الكونية على اختراق الاجسام فقد رويت عنها نوادر تحير

الالباب . فقد جرّب مليون تجارب أثبتت له ان الاشعة الكونية تخترق طبقة من الماء سمكها متفاوت بين ٥٤ قدماً في احدى البحيرات و٦٠ قدماً في أخرى . والنتائج التي أسفرت عنها تجارب مسشكي الروسي في نهر نيقا قرب لينغراد أيدت نتائج مليون . ولكن رجيمر الالماني أجرى تجاربه في بحيرة كونستانس فقال انه عند ما بلغت أجهزته سمك ٢٨٠ متراً تحت سطح الماء ، ظلّ يبدو فيها أثر للاشعة الكونية . ففي الطبيعة اذن مصدر — أو مصادر — يطلق أشعة أقوى من أشعة الراديوم أضعافاً كثيرة . فما هو ؟

ترجع بوادر هذا البحث الى أوائل القرن العشرين . ولكن الاشعة الكونية ، لم تظهر بعناية عظيمة من العلماء إلاّ حين اقترح مليون نظرية عجيبة لتفسير مصدرها ، وكان ذلك حوالي سنة ١٩٢٦ . ولباب رأيه ان الاشعة الكونية تنشأ أو تتولد في رحاب الفضاء بين النجوم ، إذ تتكوّن ذرات العناصر الثقيلة باندماج ذرات العناصر الخفيفة . وفي هذا الاندماج ، تنطلق طاقة عظيمة هي الاشعة الكونية . وأتى بأدلة تشير الى ان هذا التولد انما هو مرحلة من مراحل التكوّن والفناء في الكون ، سائرين في حلقة مفرغة

فخدير بنا أن نقف هنيهة عند هذا الرأي ، لأن مليون عاد اليه — أو الى نقيضه — في مجلة نايتشر من عهد قريب ، على أثر ما ظهر من نتائج المباحث الأخيرة في هذه الاشعة بنى مليون نظريته ، على ان هذه الاشعة هي اشعاعات كهرومغناطيسية (كهربائية مغناطيسية) أو فوتونات من قبيل الاشعة السينية وأشعة غمّا . ولكنها أقصر من هذه الاشعاعات أمواجاً وأشدّ اختراقاً للأجسام . وكان هذا الفرض طبيعياً لشدة نفوذ الاشعة ، ثم عمد مليون الى الرياضة والطبيعة معاً ، فقال إنّ أشعة لها نفس قدرة النفوذ التي تتصف بها أضعف الاشعة الكونية ، يمكن أن تتولد اذا اجتمعت أربع ذرات من الايدروجين ، واتحدت فتكون من اتحادها ذرة من الهليوم . فالطاقة التي تنطلق من هذا الاندماج ، هي في قوتها وقدرتها على اختراق الأجسام ، من رتبة الاشعة الكونية

لذلك أشار مليون الى شعاعة منها بقوله « إنها صراخ ذرة عند ولادتها » في رحاب الفضاء ، فكان قوله هذا نفخاً في بوق أهاب العلماء الى البحث

وعلى هذا القياس قيل ان تولد ذرات العناصر التي تفوق الهليوم في وزنها الذري — كالكسجين والسليكون — ينشأ أشعة كونية ، من درجات متفاوتة في قدرتها على اختراق الأجسام المادية ، وان هذه الذرات تتقارب بفعل التجاذب ، فتتكوّن منها السدم ثم النجوم . وتشم السدم والنجوم مادتها بتحويلها الى ضوء وحرارة ، وتنطلق الطاقة الشاعّة منها في رحاب الكون ، فتتحوّل في خلال رحلتها الطويلة — وهذا فرض فلسفي — الى

بروتونات وكهيرات ، ومن هذه الدقائق تتألف ذرات الايدروجين ومن اجتماع ذرات الايدروجين تتكون ذرات الهليوم فذرات عناصر أخرى وتنطلق أشعة ، وكذلك ترى الكون بحسب رأي مليكن ، يبتدىء من حيث ينتهي ما كاد مليكن يطلع بنظريته هذه ، حتى قال جينز رأي يخالفها . فالاشعة الكونية ، في نظره ، رسائل تنفي بقاء المادة وتلاشيها ، لا بتولدها . واتخذ من الحساب الرياضي اساساً لتأييد القول المشهور في علم الطبيعة ، وهو ان الكون يتدرج انحطاطاً في مقدار الطاقة الفعالة التي فيه ، الى حيث لا رجى . فالكون بحسب ناموس « الثرمودينامكس » الثاني ، وحساب جينز ، سائر الى نهاية ، ولا عودة له منها

ثم جاء باحث طبيعي فرنسي شاب يدعى دوفيليه ، فاقترح نظرية أخرى لتفسير أصل الاشعة الكونية ، ولكن الأصل الذي بنى عليه نظريته هو أن الاشعة الكونية ليست مؤلفة من فوتونات ، بل هي كهيرات تنطلق من الشمس الى الأرض ، من مناطق عالية الضغط الكهربائي في الشمس ، فيدنو بعضها من جو الأرض فيؤثر في جوها ، فيحدث الاضواء القطبية الباهرة ، ويمزق ذرات الغازات في الهواء فتنتطير شظاياها ولعل أغرب الآراء التي اقترحها العلماء لتعليل نشأة الاشعة الكونية ، هو رأي الأب لومبر الفلكي الطبيعي البلجيكي وهو صاحب الرأي القائل بأن الكون كان من ألوف ملايين من السنين ، مركزاً في حيز ضيق ثم اختل استقراره الداخلي ، فانفجر فجأة ، فانتثرت منه السدم فأخذت تبعد بعضها عن بعض ، وما فتئت تتباعد . على انه يقول ان الاجزاء التي انتثرت من الكون عند انفجاره لم تكن سدماً ونجوماً فقط ، بل كان منها دقائق صغيرة جداً ، ذرات وكهيرات وفوتونات ، وعنده ان هذه الدقائق المتناهية في الصغر ، التي ما فتئت تجوب رحاب الفضاء من بداية الكون ، هي الاشعة الكونية

فهل ثمة سبيل الى معرفة الحقيقة في طبيعة هذه الاشعة ؟ وهل هي فوتونات كما يقول مليكن وجينز ، او كهيرات كما يقول دوفيليه او مزيج من أشعة ودقائق مختلفة كما يقول لومبر ؟ وقد جرّب عالمان المانيان — بوث وكولرستر — تجربة افنعتهم انثائجهما بان الاشعة الكونية دقائق مكهربة سالبة الكهربية . فاذا صح هذا وجب أن يكون هناك اختلاف في قوة الاشعة في مناطق مختلفة على سطح الأرض ، لأن الأرض تفعل فعل مغنطيس كبير ، فيجب ان تحرف الدقائق اذ تنطلق نحو الأرض . وهذا الانحراف يجب أن يكون على أقله في المناطق المجاورة لقطبي الأرض المغنطيسيين وعلى أكثره في المناطق البعيدة عنهما اي في المناطق الاستوائية . وليس في النتائج التي أسفر عنها بحث هذه الناحية من الموضوع ، ما يصح ان يسلم به على أنه

قاطع . ولكن الامتداد كطمن انشأ تسعة بعوث — بمال أمدّه به معهد كارنجي — فرحلت الى مواقع شتى على سطح الارض كالمناطق الاستوائية في العالمين القديم والجديد ، وجنوب افريقية وزيلنده الجديدة ، وتوقلوا في الجبال العالية . ولما جمعت الحقائق وبوّبت الارصاد أظهرت ان قوة الاشعة الكونية قرب القطبين تزيد على قوتها في المناطق الاستوائية بمقدار ١٥ في المائة فقبل الرأي القائل بأن جانباً من هذه الاشعة على الأقل مؤلف من دقائق مكهربة . ولكن بعضها لا يتأثر بفعل الأرض المغنطيسي . ومباحث بيكار البلجيكي ورجينر الالماني في أعالي اطباق الجو تحمل على الاعتقاد بأن بعض هذه الاشعة مؤلف من فوتونات ، ولكن قد يكون بعض آخر مؤلفاً من ذرات ونوى ذرات العناصر الخفيفة ، فكأن رأي ليمتر ، هو على ما يعلم أدنى الى الحقيقة

على ان البحث مستمر . وقد انتظم فيه باحثون لم نعهد اسماءهم من قبل في هذا البحث مثل علماء وفد ذهب من جامعة شيكاغو الى جبل افانز في كولورادو والدكتور لاپ أحد علماء معمل ريرسون للبحث الطبيعي وغيرهم . وقد نشرت نتائج أبحاثهم في المجلة الطبيعية . ومنها ان الاشعة تصيب الارض في شأبيب ، يشمل أحدها بقعة من الارض محيطها ٣٥٦٠٠ قدم ، وان في مركز الدائرة بقعة محيطها ٣٥ قدماً تبلغ فيها كثافة الاشعة او الدقائق ، مبلغاً عظيماً . وهؤلاء العلماء أمل الى عد الاشعة الكونية ككبريات

ولكن مليكن لا يزال أحد فرسان الميدان المقدمين . وقد عاد من عهد قريب ، الى بحث رأيه عن ولادة العوالم ، كما تدل عليها الاشعة الكونية ، على ضوء المباحث الجديدة . ونشر مقالته في مجلة « نايتشر » . فرأي جينز كان قائماً على أن انحلال ذرة ما ، يولد طاقة عظيمة . وان انحلال ذرة كربون يولد طاقة قدرها ٦٦٠٠ مليون كهرب فولط . وانحلال ذرة نروجين يولد ٧٥٠٠ مليون كهرب فولط . فانحلال ذرة اورانيوم على هذا القياس يولد ١٢٥٠٠٠ مليون كهرب فولط . ولكن شأبيب الاشعة الكونية التي بحثها الدكتور لاپ تشمل طاقة من رتبة ١٠٠٠٠ مليون مليون كهرب فولط ، فلو كان الاعتماد في توليدها على انحلال ذرة لوجب ان تكون هذه الذرة ٨٠٠٠٠ الف ضعف أثقل من ذرة الاورانيوم . فهل في الفضاء الرحب مكان ما ، توجد فيه ذرة من هذا القبيل ؟ الرجّح ان الجواب بالنفي ، واذاً فالمباحث الحديثة تبعد في نظر مليكن رأي جينز في ان مصدر هذه الاشعة هو انحلال المادة في رحاب الفضاء

وعليه فالوقت لم يحن بعد لفهم معنى الرسالة التي تحملها هذه الاشعة وانتاج نتائج فلسفية عامة عن مقامها في السكون المادي وصلتها ببدايته ونهايته

معارض الجمعية

الزراعية الملكية

وتشجيع الصناعات الأهلية *

لفؤاد أباظه باشا

تقام المعارض لأغراض عديدة كبيرة الفائدة . فهي ميدان للمباراة والتنافس بين الصناع وغيرهم من المنتجين مثل الزراع فيعرض كل منهم أحسن ما وصل اليه جهده . كما هي الوسيلة الهامة لتعريف المستهلكين بمختلف الصناعات ومنتجاتها . كما تعتبر من أهم الوسائل التي يتعرف بها الصناع انفسهم رغبات المستهلكين ثم لجهود الهيئات التي تقوم بالأبحاث الخاصة بالصناعة وتقدمها وطرق تحسينها والمواد الخام التي تدخل في هذه الصناعات ومصادرها وينتج عن هذه العوامل مشتركة خلق صناعات لم تكن موجودة وتحسين الموجود منها لدرجة تستهوي رغبة المستهلكين وتستطيع درء مزاحمة المنتجات الأجنبية الواردة خصوصاً بعد استعراض الاحصائيات التي تقدمها الحكومة والهيئات المشغلة بالاحصاء عن أحوال الاسواق وغيرها . كما يجب ألا ننقل ان المعارض العامة كانت تربط الزراعة بالصناعة والصناعات الزراعية

ولقد أقامت الجمعية الزراعية خمسة عشر معرضاً عاماً في القاهرة عدا المعارض المحلية ، وتميزت المعارض التي أقيمت منذ سنة ١٩١٩ لآخر معرض ١٩٣٦ بكونها معارض زراعية صناعية ، بحيث جمعت المعارض الزراعية والصناعية التي اشترك في تقديمها هيئات الحكومة ذات العلاقة بالزراعة والصناعة ، كذلك الهيئات الأهلية من زراعية وصناعية ولا ريب في أن الجمعية قد أدت باقامة المعارض خدمة عظيمة للبلاد ، وأشاعت فيها روح الجد والمثابرة والاتقان . واذا كانت مصر قد عرفت منذ قديم الأزمان بأنها بلاد زراعية وبلغت في هذا السبيل ، بفضل ما أدخلته من أساليب الزراعة الحديثة مبلغاً عظيماً جعلها في الصف الأول بين البلاد الزراعية ، فإن المعرض قد أتاح الفرصة أيضاً فتبين للجميع ان النهضة

الصناعية تسير مع الزراعة في طريق النماء والازدهار . ونفت بذلك من الأذهان ما استقر فيها من زمن قديم ، وهو أن مصر لا يمكن أن تصبح بلداً صناعياً أجلاً . كانوا يلقنوننا في المدارس والمعاهد أن الطبيعة قضت على مصر أن تظل أبداً الدهر بلداً زراعياً خصب ، وإن كل جهد يبذل في سبيل جعلها بلداً صناعياً للصناعة هو جهد ضائع . وقد رسخت هذه الفكرة في عقيدتي ، منذ كنت طالباً متأثراً بما كان يلقناني إياه أساتذتي من الأوربيين الذين تلقيت العلم على أيديهم . وسرت هذه التعاليم منهم إلى الوطنيين . وأخذ الجميع يكررون هذا القول على مسامعنا حتى ساد الاعتقاد أن مصر لا تصلح أن تكون بلداً صناعياً

ولكنني حين أشرفت على إقامة معرض سنة ١٩٢٦ ، ولمست عن قرب مدى ما وفقت له مصر في ميادين الصناعة أدركت مقدار ما في هذا القول من خطأ ، وأيقنت أن مستقبل البلاد في الصناعة — بجانب الزراعة — مكفول مرموق

وحين أخذت الجمعية تعد العدة لمعرض سنة ١٩٣١ لاحظت لي بوادر جديدة على أن النهضة الصناعية تسير في طريقها ، وإنما توشك أن توفي على غايتها

وفي ١٩ ديسمبر سنة ١٩٣٠ ألقى محاضرة عن معرض سنة ١٩٣١ قلت فيها « إن معرض سنة ١٩٢٦ كان حادثاً موفقاً جعل الجمهور المصري يشعر أن في بلده صناعة ، وصناعاً حذافاً . وبدأت الطبقة المتفرجة التي كانت لا ترى في صناعات بلدها إلا اصنافاً منحطة لولعها بكل ما هو اجني ، تفيق من غفلتها وتفتح عيونها . وقد أخذتها الدهشة عند ما قدم العامل المصري البرهان الساطع على فساد هذه النظرية التي غرسها في اذهانهم هؤلاء المغرضون الذين لا يهمهم إلا الترويج للمنتجات الأجنبية والقضاء على المصنوعات المصرية وقبل افتتاح معرض سنة ١٩٣٦ ألقى في جمعية الشبان المسلمين يوم السبت ٢١ ديسمبر سنة ١٩٣٥ محاضرة قلت فيها « إن معرض سنة ١٩٣١ كان سجلاً لمقياس التقدم المطرد في شؤون الصناعة والزراعة . وإن مصر قد قطعت خطوات سريعة في هذا المضمار مما ساعد على توازن كفتي ميزانها التجاري عند ما بدا في الأفق شبح منافسة الاقطان الأجنبية لاقطانا المصرية وأصبح القطن غير صالح وحده ليكون المرجع والعماد الوحيد للثروة المصرية » وجاء معرض سنة ١٩٣٦ مصداقاً لهذا الذي توقعت . وبدد الوهم السابق بل كان بمثابة النهار الساطع الذي طلع على ليل قاتم . وآمن الجميع أن مصر يمكن أن تصبح بلداً صناعية عظيمة كما هي بلاد زراعية عظيمة . وأن ليس أمامها ، كي تصل إلى ما تصبو إليه ، إلا أن تصح النيات وتتضافر القوى ، فقد وهبها الله تربة خصبة وأرضاً ممهدة منبسطة ، ورقعة ممدودة .

ومواني صالحة ، وموقعاً جغرافياً جعلها صلة بين الشرق والغرب . يضاف الى هذا كله مهارة تقليدية ورثها العامل المصري منذ فجر التاريخ حين كانت مصر معلة العالم في دقة الصناعة وجمال الفن

ولولم يكن لمعرض سنة ١٩٣٦ إلا الفضل في ابراز هذه الحقيقة الكبرى لكفاه نجاحاً ولكفى الهيبة التي أعدت له جزاء على ما تكلفت في سبيله وقد امتاز معرض سنة ١٩٣٦ بأن خصص فيه قسم للسودان فجاء المعرض معبراً عن الأماني القومية تعبيره عن النهضة الزراعية والصناعية . وأتاح الفرصة لسكان وادي النيل لكي يجتمعوا في صعيد واحد على شاطئه السعيد وليس هذا خسب ، بل لقد أتاح معرض سنة ١٩٣٦ لجيراننا من اهل العراق وسورية ولبنان وفلسطين وشرقي الاردن والحجاز واليمن وشمال افريقية الفرصة لزيارة مصر والتعرف الى نهضتها فأدى بذلك خدمة جليلة عظيمة الاثر بالنسبة الى مركز مصر ومستقبلها

...

ولنبعث في محاضرتنا هذه عن أثر هذه المعارض في تشجيع الصناعات الاهلية ، باعتبارها معاونة للجهود الحكومية والاهلية في خلق الصناعات وتحسينها . فالمعارض كما قلنا كانت تؤدي رسالة الهيئات الحكومية والاهلية والمستهلكين الواحد للآخر وللوصول الى تحقيق ما افادته الصناعات من رسالة المعارض يتطلب ولو عدة طرق أحدها بحث الانتاج للمصانع المحلية الاصلية والمستحدثة . بيد ان هذا الامر عسير لعدم وجود الاحصاء الانتاجي الكافي . وقد يلمس كل منا ظهور المصنوعات الاهلية ورواجها حوله وليكن حصر ذلك ليس بالسهل من الوجهة الاحصائية . ولعل اكبر دليل ملموس ما نجده الآن في حالة الحرب الراهنة من انتعاش المنتجات الاهلية ورواجها مع انقطاع الوارد لدرجة هائلة . اما الطريق الثاني فيكون من استقراء بيانات البضائع الواردة في مختلف السنين ومقارنتها من حيث أخذها في التناقص وحلول المنتجات الاهلية بدلا . ولقد سلطنا هذا السبيل بمقارنة الواردات الاجنبية في بعض السنوات قبل وبعد المعارض الثلاثة الاخيرة وهي معارض ١٩٢٦ و ١٩٣١ و ١٩٣٦ مع ملاحظة ان البلد الذي زده فيه الصناعات تقل وارداتها من المنتجات المشغولة أو المصنوعة وتزيد في واردات المواد الخام التي لا سبيل لانتاجها محلياً ويجب ألا ننفل عاملين عند المقارنة : أولها الزيادة المطردة في سكان البلاد خلال سني المقارنة اذ كان يجب ان تنمشی معها زيادة الوارد من المواد المصنوعة . ثم زيادة القدرة على الشراء .

أما العامل الثاني فهو ارتفاع الأثمان للمواد في السنوات الأخيرة وزيادة الرسوم الجمركية . فلو كانت الصناعة في مصر باقية على حالها لتحتم زيادة أثمان المصنوعات الواردة سنة بعد أخرى . وهذه الأمور مجتمعة تزيد من بروز المقارنة عند استعراض الوارد من المصنوعات الأجنبية

فالمعرضان الزراعيان في سنتي ١٩٠٩ و ١٩١٢ يجب ان نعتبرهما معارض تمهيدية للنهضة الصناعية في مصر . غير ان حلول الحرب الماضية سنة ١٩١٤ لا تمكننا من تتبع أثرها . وان لم يخلو من الفوائد الزراعية والصناعية خصوصاً في تعريف الصناع بالآلات والماكينات مما عاد بفوائد لا بأس بها بطريق غير مباشر

أما معرض سنة ١٩٢٦ وهو الأول بعد الحرب العالمية الماضية فقد كان مفاجأة عجيبة اذ أظهر للعلا وجود صناعات أهلية متقنة كانت مهملة يجهلها كثيرون من المصريين كانوا يعملون في شراء أمتعتهم على المصنوعات الأجنبية كما سنبين في الاحصائيات الواردة بعد . ثم جاء معرض سنة ١٩٣١ ومعرض سنة ١٩٣٦ بنجاح أظهر . وهكذا تقدمت المعارض وتدرجت تبعاً لتقدم البلاد وبالجملية خطت خطوة واسعة

وليس الاحصاء الذي تقدمه شاملاً بل نكتفي بالامثلة لنبين مدى ما أفادته بعض الصناعات الأهلية

✽ صناعة الموبيليات أو الأثاث الخشبية والمعدنية ✽ كان للمعروضات التي قدمتها المدارس الصناعية والمصانع الأهلية أثر كبير . اذ برهن على اتقان هذه الصناعة التي لا تقل ان لم تتفق ما كان ينسب عليه كبار المصريين وغيرهم . وان العامل المصري اذا وجد التشجيع ورواج سلعته أمكنه ان يبلغ درجة النبوغ . ففي سنة ١٩٢٨ استوردت مصر أثاثاً خشبياً من أنواع مختلفة بمبلغ ٣٧١ ألف جنيه تقريباً فهبطت قيمة الوارد في سنة ١٩٣١ الى ١١٨ ألف جنيه وفي سنة ١٩٣٣ (أي بعد معرض ١٩٣١) هبطت مرة أخرى الى نحو ١٥ ألف جنيه ثم أخذت هذه القيمة في القلة . ومقابل ذلك زادت قيمة الوارد من الخشب الصالح لاستعمال الأثاث مما يدل على نهوض هذه الصناعة

ومن بين أنواع الأثاث : النوع المنجسد وكانت قيمة الوارد منه ٣٢ ألف جنيه سنة ١٩٣١ فأصبح ٣ آلاف جنيه سنة ١٩٣٧ مما يدل على انتعاش صناعة التنجيد أيضاً

وقد يتبع هذه الصناعة صناعات أخرى مثل الأثاث المصنوع من الصفصاف أو الخيزران فقد كانت قيمة الوارد منه ٩ آلاف جنيه سنة ١٩٢٧ فأصبحت ٦٢ جنيهاً فقط

سنة ١٩٣٦ . والمعلوم ان هذه الصناعة منتشرة في البلاد

ولا بأس ان نضيف الى هذا الباب صناعة المكائن التي كانت وارداتها في سنة ١٩٢٧ . بمبلغ ٢٠ ألف جنيه تقريباً واصبحت في سنة ١٩٣٣ - ٧٥٠ ألفاً جنيهاً وفي سنة (١٩٣٧) ٢٣٥ ألفاً جنيهاً فقط . وهذا ناشئ عن زراعة ذرة المكائن في مصر وتقدم صناعة المكائن كادت على ذلك معروضاتها

❖ **الآلات المعدنية** ❖ نكتفي بالتدليل على ما أفادته صناعة الآلات المعدنية بالاسرة فقد كانت قيمة الوارد من الاسرة المصنوعة من الحديد والنحاس ١٣٥ ألف جنيه سنة ١٩٢٨ فأصبحت في سنة ١٩٣١ - ٢٠ ألف جنيه منها ١٢ ألف جنيه قيمة الاسرة الحديدية و ٨٥٠٠ جنيه قيمة الاسرة النحاسية المستوردة . وذلك نتيجة نشاط صناعة الاسرة في مصر وزيادة المصنوع منها من الخشب . وهكذا هبطت قيمة واردات المصنوعات النحاسية المصقولة من ٥١ ألف جنيه سنة ١٩٣١ الى ١٨ ألف جنيه سنة ١٩٣٨ كما هبطت قيمة الوارد من مواقد البترول من ٤٧ ألف جنيه سنة ١٩٢٨ الى ١٥ ألف جنيه سنة ١٩٣٣ . وهكذا الحال مع أجهزة الاضاءة والنجف والاعمدة ومصنوعات النيكل المنقوشة على هذا النحو

❖ **صناعة الاحذية الجلدية والجلود** ❖ لم يكن اهتمام المعارضين من الافراد والهيئات الحكومية بصناعة الاحذية الجلدية والجلود ليقول عن غيرها . وقد أصبحت بحق صناعة وطنية تسد حاجة السكان . لقد استوردت مصر سنة ١٩٢٨ ما لا يقل عن ٥٧٠ الف زوج من الاحذية الجلدية فهبطت سنة ١٩٣١ الى ٢٢٤ الف زوج وفي سنة ١٩٣٣ الى ٥٩ الف زوج وفي سنة ١٩٣٦ الى ٥١ الف زوج وقيمة ذلك بالتوالي ٢٤٦ الف جنيه ثم ٩٥ الف جنيه ثم ٢٨ الف جنيه ثم ٢١ الف جنيه - ونشطت مع هذه الصناعة صناعة دهان الاحذية والجلود فقد كانت قيمة الوارد منها نحو ٤٠ الف جنيه سنة ١٩٢٨ هبطت الى ١٥ الف جنيه سنة ١٩٣٦

وقد نشطت أيضاً صناعة دبغ الجلود وما أدخل عليها من تحسينات فزادت قيمة المادة الخام التي تستورد للدباغة (خلاصة نباتية) من ٢٨ ألف جنيه سنة ١٩٣١ الى ٤٨ ألف جنيه سنة ١٩٣٨ كما قلت قيمة الوارد من الجلود الخام بنحو ٥٠ ٪ وغيرها - وأصبح يستعمل بعضها في صناعة الاحذية الجلدية في البلاد وما يزيد على ذلك يصدر الى الخارج وقد صدرت مصر سنة ١٩٣٣ بما يساوي ١٥٠ ألف جنيه جلود غير مدبوغة وبمبلغ ١١٨

الف جنيه جلود مذبوغة . وفي سنة ١٩٣٧ زادت قيمة الصادر على الاول كثيراً وعلى الثاني قليلاً . وهكذا نشطت صناعة الجلود في مصر من احذية جلدية وحقائب وسروج وغير ذلك مع تقدم فن الزخرفة مما يجعلها مضاهية لاحسن الاصناف المستوردة

❖ صناعة الصابون والزيوت والشحوم ❖ كان لمعروضات الصابون والمواد الزيتية ومشتقاتها التي نسقت للزائرين أثر كبير في الصناعة وتقدمها وما لاقته بعد من رواج . لقد كانت تستورد البلاد في سنة ١٩٢٥ نحو ١٠٤٠٠ طن من الصابون العادي ثمنها نحو ٥٢٤ الف جنيه فهبطت الى ٦٣٠٠ طن سنة ١٩٣١ و ٤٦٠٠ طن سنة ١٩٣٢ وبفضل تقدم الصناعة وانتشارها قلت كمية المستورد وأصبحت ٢٨٠٠ طن سنة ١٩٣٦ — وقد تقدمت الصناعة كما هو مشاهد الى درجة انتاج أحسن أنواع الصابون: صابون غسل الوجه وغيره — ومقابل ذلك تستورد البلاد كميات عظيمة من زيت الزيتون وزبدته وجوز الهند وزبدته بمقادير متزايدة لادخالها في صناعة الصابون علاوة على ما تستنفده من زيت بذرة القطن . ولا شك ان مصر كسبت مبالغ عظيمة بزيادة انتاج الصابون محلياً بدلاً من السكمية التي كانت تستوردها

ولا بد من الاشارة الى صناعة زيت بذرة القطن وما أفادته المعروضات والملاحظات من ترغيب الطبقة العليا والمتوسطة في أنواع الزيت المكررة لاستعمالها في الغذاء وقد أثمرت هذه المحاولة وأصبحت تراحم الزيوت المستوردة مثل زيت الزيتون وغيره — ولذلك يلاحظ تناقص في كمية زيت الزيتون المستوردة للتغذية . وزيادة في كميته المستوردة منه للصناعة ، فقد كان المستورد منه في سنة ١٩٣٦ للصناعة ٢٢٦٥ طن وللغذية ٩٥٠ طن فقط بعد أن كان مقدار الوارد من الأخير ٢٢٧٠ طن في سنة ١٩٣٣ . وبجانب صناعة الزيت نشطت صناعات كثيرة منها السمن الصناعي والدهان وشموع الاضاءة وغيرها

وقد كانت قيمة الوارد من الشموع ٦٩٠٠ جنيه في سنة ١٩٣٢ فهبطت الى ٢٥٠٠ جنيه في سنة ١٩٣٦ كذلك دهان الاحذية والجلود من ٤٠٠ الف جنيه سنة ١٩٢٨ الى ١٥ الف جنيه سنة ١٩٣٦

❖ صناعة السكر والارز ❖ ولا شك ان صناعة السكر وموقفها ازاء الوارد والصادر قد تغير ، فقد كان المستورد من السكر المكرر حول ٥٠ الف طن والخاص ١٠ آلاف طن وذلك بين سنوات ١٩٢٤ الى ١٩٢٨ وقد تحول الموقف إذ أصبحت مصر لا تستورد من

السكر المكرر أكثر من ٦٢٤ طن سنة ١٩٣٦ و ٣٧ ألف طن من الخام في تلك السنة وتكرره في المصانع المصرية

كذلك كان يستورد أرز مقشور بكمية كبيرة، مثال ذلك ٦٦ ألف طن سنة ١٩٣١ فهبطت الى ٤٦٠٠ طن سنة ١٩٣٢ وما بعدها . بينما تستورد مصر كميات من الارز غير المقشور تزيد أو تقل تبعاً لرغبة الزراعة في تجديد التقاوي وسد الفاض ، فقد كانت قيمة المستورد ٦٥٣ ألف جنيه سنة ١٩٢٥ فهبطت الى ٢١٦ ألف جنيه سنة ١٩٣٢ والى ٣ آلاف جنيه سنة ١٩٣٣ . ومعنى ذلك ان مصر تسد حاجتها من ناتج الارز المنزوع في بلادها . وزادت تبعاً لذلك أعمال مضارب الارز وهي صناعة بلغت مراحل كبيرة من التقدم

❖ مصنوعات الحرير والصوف ❖ كان لمعروضات الحرير والصوف أهمية خاصة في المعارض . أولاً لأن البلاد ليست منتجة لخام الحرير بينما تستعمل الأنسجة الحريرية في فطاق واسع . بيد ان صناعة الحرير ازدهرت فزادت كميات الخيوط الخام وغيرها المستوردة من ٩٢ ألف جنيه سنة ١٩٣١ الى ١٤٠ ألف جنيه سنة ١٩٣٣ الى ٢٦٢ ألف جنيه سنة ١٩٣٧ وكذلك زادت قيمة الخام المستورد من خيوط الحرير الاصطناعي من ٥٦ ألف جنيه في سنة ١٩٣١ زيادة تدريجية الى ٢٤٩ ألف جنيه في سنة ١٩٣٧ . على ان ما يبين ازدهار صناعة الصباغة أيضاً ان الوارد من الخيوط المصبوغة لم يزد على ٤ آلاف جنيه سنة ١٩٣١ و ٧ آلاف جنيه سنة ١٩٣٧ . ويقابل ذلك هبوط واردات المصنوعات الحريرية الدقيقة مثال ذلك الدانتلة والمطرزات وشرائط الحرير والعقادة والقطيفة حيث كان قيمة الوارد منها ٦١ ألف جنيه سنة ١٩٣١ فصار نحو ٣٨٠٠ جنيه سنة ١٩٣٣ فقط

أما الملابس « الجاهزة » وأجزائها من الحرير ومثلها « الملابس الداخلية » فقد كان قيمة الوارد منها ٩٦ ألف جنيه سنة ١٩٣١ فصارت ٣٤ ألف جنيه سنة ١٩٣٣ و ٢٥ ألف جنيه سنة ١٩٣٦ ومثلها الشيلان والكفيمات من الحرير الطبيعي فقد كانت قيمة الوارد منها سنة ١٩٢٨ — ٣٦ ألف جنيه فصارت ٥٦٠٠ جنيه سنة ١٩٣١ ثم هبطت الى ٩٠٠ جنيه فقط سنة ١٩٣٣

ويدهشكم الاطلاع على الرقم الخاص « بالكراشات » وهي تعمل من قطن أو حرير ، فقد كان قيمة الوارد منها سنة ١٩٢٨ نحو ٧٦ ألف جنيه وفي سنة ١٩٣١ هبط الى ١٩ ألف جنيه وبعد معرض ١٩٣٢ — هبط مرة أخرى الى ٦ آلاف جنيه . وفيما تقدم دلالة عظمى على اتساع وتقدم هذه الصناعة الدقيقة في البلاد وهي مثل لعدد كبير غيرها

﴿ الصوف ﴾ ومصر ليست من البلاد التي تنتج الصوف . إنما يشتغل كثير من المصانع الصغيرة وربات المنازل في اعداد المنسوجات الصوفية . ولزم تبعاً لذلك ان يزيد مقدار المستورد من غزل الصوف وخيوطه لأمداد من تقدم ذكرهم . اذا كانت صناعة الصوف تنتشر وتتقدم ايضاً . ويدل الاحصاء على ان قيمة المستورد من الغزل والخيوط الصوفية كانت ٢٥ الف جنيه سنة ١٩٣١ فصارت ٥٨ الف جنيه سنة ١٩٣٣ ثم صعدت الى ٩٦ الف جنيه سنة ١٩٣٦ . ومن بين هذه بند بارز وهو خيوط الصوف المعدة للبيع بالتجزئة للأفراد . فقد كانت قيمة الوارد منه ٩ آلاف جنيه سنة ١٩٣١ فصعدت الى ٣٢ الف جنيه سنة ١٩٣٧

وهذا البيان يدل على تقدم صناعة الصوف كبيرها وصغيرها في البلاد بينما يقابل هذه الزيادة التي شوهدت في المستورد من المواد الخام انخفاض في المصنوعات الصوفية المستوردة مثل الملابس الجاهزة فقد كان قيمة المستورد منها سنة ١٩٢٨ - ١٠٥ آلاف جنيه - فهبطت الى ٥٢ الف جنيه سنة ١٩٣١ و ٤١ الف جنيه سنة ١٩٣٣ و ٣٧ الف جنيه سنة ١٩٣٦ . وقد هبطت ايضاً قيمة الوارد من السجاد المصنوع من الصوف

﴿ صناعة الطرابيش وأغطية الرأس ﴾ وهذه صناعة ناشئة بدأ بها بعض الأفراد أولاً ثم انهارت، ثم كان مشروع القرش الذي أنشأ مصنع الطرابيش بالعباسية ثم نما وازدهر وأصبح يمؤن القطر المصري كله بالطرابيش - كانت قيمة ما استورد منها سنة (١٩٢٨) ٩٣ الف جنيه فهبطت سنة ١٩٣٣ الى ٧٩ الف جنيه ثم الى ٤ آلاف جنيه سنة ١٩٣٦ - وكذلك كان حال أغطية الرأس الأخرى التي كان قيمة الوارد منها سنة ١٩٣١ - ١٤٠ الف جنيه فتناقص الى ٦٢ الف جنيه سنة ١٩٣٦

﴿ الصناعة القطنية ﴾ يتطلب الكلام على الصناعة القطنية ومقدار ما أفادته من رسالة المعارض - المجال الكبير مما قد تضيق عنه مثل هذه المحاضرة وذلك لتشعب الموضوع وتعدد أنواع الصناعة ولذلك نستعرض أولاً الصناعات الفرعية الصغيرة مثل القطن الطي والجوارب والملابس الجاهزة و«البياضات» والمناديل وغير ذلك مما كان ممثلاً في المعارض الزراعية الصناعية العامة أحسن تمثيل

﴿ القطن الطي ﴾ من الذين زاروا المعارض العامة ولم تفقه معروضات القطن الطي التي كان يعرضها بعض شركات مصر ولم يعتبر أنها جراءة غير موفقة في عمل قطن معقم يستعاض به عن مصنوعات البلدان الأجنبية . ولكن كانت النتيجة في جانب المتفائلين كما

يتضح من مقارنة قيمة الواردات من القطن المعقم . حيث كانت قيمتها سنة ١٩٢٨ تبلغ نحو ١٩ ألف جنيه ثم هبطت الى ٢١٠٠ جنيه في السنة التي أقيم فيها معرض سنة ١٩٣١ وما لبثت ان صارت في السنة التالية ٨٠٧ جنيه وهكذا حتى أصبحت قيمتها ٢٥٠ جنيه فقط بعد معرض سنة ١٩٣٦

بعض المصنوعات القطنية الدقيقة كانت تستورد مصر من الجوارب ما قيمته ١٣٤ ألف جنيه سنة ١٩٣٣ فهبط الى ٥٧ ألف جنيه سنة ١٩٣٨ ومن الملابس القطنية الجاهزة بما قيمته ٢٤ ألف جنيه سنة ١٩٣١ فهبط الى ١٦ ألف جنيه سنة ١٩٣٦ . كما هبطت قيمة الوارد من الملابس الداخلية الجاهزة من القطن من ٢٦ ألف جنيه . الى ١٢ ألف جنيه . اما « الفوط والبشاكير » فكان قيمة الوارد منها سنة (١٩٢٨) ٧٦ ألف جنيه فهبطت الى ٨ آلاف جنيه سنة ١٩٣٨ ، والبياضات المزينة الجاهزة من ٧٩ ألف جنيه سنة ١٩٣١ الى ٢١ ألف جنيه سنة ١٩٣٨ . والبطانيات القطنية من ١٢ ألف جنيه الى ٢٠٠٠ جنيه فقط والشيلان والكفيات القطنية من ٥٧٠٠ جنيه الى ٨٠٠٠ جنيه والمناديل وأغطية الرقبة من ٢١ ألف جنيه الى ١٧ ألف جنيه

أما بالنسبة لخيوط القطن التي تهيأ على بكر أو بدونه وهي مرحلة وسطى في هذه الصناعة فقد كان قيمة الوارد منها (المهيأ على بكر) ١٢٠ ألف جنيه سنة ١٩٣١ فهبط الى ٦٩ ألف جنيه سنة ١٩٣٦

اما عن الاقشة القطنية السمر الثقيلة فقد كانت تستورد مصر بما قيمته ٣١٢ ألف جنيه سنة ١٩٣١ فهبط الى ٢٢١ ألف جنيه سنة ١٩٣٦ . بينما كان النزول عظيمًا في الاقشة القطنية السمر المقصورة فقد كانت قيمة الوارد منها ٢٨٦ ألف جنيه سنة ١٩٣١ فهبط الى ٣٣ ألف جنيه سنة ١٩٣٣ كذلك هبطت قيمة الحشو للباد والحبال بنسبة كبيرة . أما بالنسبة لجللة الاقشة القطنية المستوردة في سنوات ١٩٢٥ ، ١٩٢٩ ، ١٩٣٣ ، فكانت قيمتها كما يأتي ٨٤٠٠٠٠٠٠ جنيه و ٦٤٦٠٠٠٠٠٠ جنيه و ٣٥٥٠٠٠٠٠٠ جنيه بالتوالي

ومما يدل على ان مصر تقدمت ايضاً في عمل غزل القطن علاوة على صناعة النسيج . ان المادة الخام هبط استيرادها ايضاً وهي المعروفة بغزل القطن مما يدل على كثرة انتاجه في مصر داخلياً

صناعة الثقاب (الكبريت) يصح تطبيق المثل (أندر من الكبريت) على الماضي حينما كانت قيمة الوارد من عيدان الكبريت او الثقاب ٢٤٥ ألف جنيه عام ١٩٢٨ ولكن الحال

تبدل الآن اذ هبطت كمية المستورد الى ما يعادل ٨٠ الف جنيه سنة ١٩٣٣ و ٢٥٠ الف جنيه سنة ١٩٣٦ . ومع ان صناعة ثقب الكبريت سائرة في الازدياد الا أن المثل السابق ذكره لا يزال قائماً مع تعديله الى « أندر من الكبريت الجيد » ولعل صانعيه يوفقون الى اجادته أكثر مما هو عليه الآن

صناعة الجبن ومنتجات الالبان وبعض الأغذية تتميز المعارض العامة بمعرضات الجبن والمحفوظات وأنواعها التي تفن في ابرازها المعاهد الزراعية والمصانع الوطنية مما برهن على امكان عمل أكثر انواع الجبن في مصر على أحسن القواعد

كانت قيمة الوارد من الجبن في سنة ١٩٢٥ نحو ٣٥٠ الف جنيه فهبطت في سنة ١٩٣٢ الى ٢٠٧ آلاف جنيه ثم الى ١٩١ الف جنيه سنة ١٩٣٣ . وربما كان أكبر برهان على انتشار هذه الصناعة كفايتها للمستهلكين في الوقت الحالي

وهكذا الحال عن منتجات الالبان والفاكهة التي كان قيمة الوارد منها (أي الفاكهة) ٦١٤ الف جنيه سنة ١٩٣٠ فهبط الى ٤٥٥ الف جنيه سنة ١٩٣٣ وهبط مرة أخرى الى ٢٠٩ آلاف جنيه سنة ١٩٣٧ . ولا شك انه كان للمعرض من أصناف الفاكهة والرغبة في زرع الأحسن منها فعل كبير في قلة الوارد . ولا نفسى معروضات التعبئة لتصدير الفاكهة الى بلدان اوروبا منذ حوالي ١٩٣٥

وعلى هذا النحو من تقدم صناعة التجفيف والحفظ لضرب مثلاً للفاصوليا واللوبياء الناشفة التي كان يستورد منها ما قيمته ٤٨ الف جنيه سنة ١٩٣١ فهبطت الى ٦ آلاف جنيه سنة ١٩٣٣ و ٧٠٠ جنيه فقط سنة ١٩٣٧

وقد كان للمكرونة المصنوعة محلياً مجال في المعرض بحيث بينت للناس جودة النوع وتعدد فبعد أن كان الوارد منها سنة ١٩٢٨ نحو ٧٠ الف جنيه اذ به هبط الى ٧ آلاف جنيه سنة ١٩٣٣ — و ٢٤٠٠ جنيه سنة ١٩٣٦

وهناك مثل آخر على الصناعة الغذائية كالأسماك الطرية او المملحة ، فقد كانت تستورد مصر منها ما قيمته ٣٢٧ الف جنيه سنة ١٩٢٥ فهبط الى ٢٣٣ الف جنيه سنة ١٩٢٨ واستمر هذا الهبوط حتى وصل الى ٨٥ الف جنيه سنة ١٩٣٣

كذلك الحال مع اللحوم المجففة او المملحة (مثل الباسطرمه) فقد كان الوارد منها سنة ١٩٢٧ يقدر بنحو ٧٦ الف جنيه فهبط الى الفين جنيه سنة ١٩٣٢ و الف جنيه فقط سنة ١٩٣٣

﴿صناعة الزجاج﴾ تميزت المعارض منذ نشأتها بوجود صناعة للزجاج بدائية يقوم بعرضها أصحاب مصانع الزجاج او بالحري أفران الزجاج الكائنة بجهة باب النصر - وتقتصر على الانتفاع بالكسر من الزجاج في عمل الأساور والخواتم والأقراط وبعض دوارق وكؤوس الماء . ثم تدرجت في الحرب الماضية الى الانتفاع بزجاجات « الغازوزة » وغيرها في عمل أكواب للشرب اثناء الحرب الماضية . ولكن تميزت المعارض الاخيرة بمعرضات المصانع الكبرى التي تؤلف المادة الزجاجية نفسها من موادها الخام في صنع الأكواب والآنية وزجاجات « اللهبات » وغير ذلك من الضروريات . وأنه وان لم يتمكن من بيان ناتج المصانع الحديثة بصفة احصائية الا اننا نشعر بأنها مدت الفراغ ابان هذه الحرب وتكاد تفي مصنوعات بمطالبات السكان . على انه اذا اقتصرنا على مقارنة الوارد من زجاجات « اللهبات » وحده لوجدنا ان قيمة الوارد منها سنة ١٩٣١ كانت ٤٣ الف جنيه فهيبت تدريجياً الى ثلاثة آلاف جنيه فقط

هذه هي - أيها السادة - بعض الأمثلة التي أوردناها دلالة على انتعاش الصناعات المحلية وتقدمها وخلق صناعات جديدة مما ساهمت المعارض في عملها إذ كانت كما قلت سابقاً رسالة بين المستهلك والصانع والهيئات المشتغلة بتقدم الصناعة . ولا ننسى الصناعات الهامة الاخرى التي انتعشت وأدت الى المستهلك أجل الخدمات والتي تعمل الحكومة والهيئات مجتمعة الى تقدمها مثل صناعة الاسمنت التي كادت تقضي على الوارد بأكمله . ثم الأدوات الكهربائية وملحقاتها وأصناف الادھنة الطبيعية وحاصلات البحر مثل الصدف والأزرار والأسفنج والحلوى ، والصناعات الزراعية باختلاف أنواعها

...

وفي المعارض القادمة ان شاء الله منعني كل العناية بعرض كل ما يشجذ الهمم لاهوار صناعتين هامتين جداً أصبحت الحاجة اليهما من الأمور المموسة - صناعة الكهرباء من تدفق المياه من خزان أسوان واستغلالها في صناعة الاسمدة الكيماوية ، ثم صناعة الحديد من ملايين الاطنان الموجودة في منطقة أسوان

وتجدون في هذا المكان نفسه بيانات شائعة عنها في المعرض الجليل الفائدة الذي أقامته وزارة التجارة والصناعة حتى تتمكن أسوان المسكينة من تبوء مركزها بين مديريات القطر في المكان الذي أعدته الطبيعة لها في عالم الصناعة

وفقنا الله جميعاً لما فيه خير البلاد .



هنا زجاج يحوي محصول يوم واحد من الپنيسيلين في أحد المصانع التي
يحضر فيها . وفي كل زجاجة من هذه الزجاجات المصفوفة على رفوف جرعة
من الپنيسيلين . ولكن الپنيسيلين النقي لا يستخرج منها الا بعد انقضاء
ثلاثة أسابيع على تهيئة هذه الزجاجات

ثورة في العلاج

للدكتور محمد رشاد الطوبى

المدرس بكلية العلوم

يرى الباحث في تاريخ العلوم المختلفة ان هذا التاريخ حافل بعدد كبير من الاكتشافات العلمية التي كان لها أثر واضح في تقدم الانسان ، وليس هناك من شك في أن كثيراً من هذه الاكتشافات كانت نتيجة أبحاث طويلة ودراسات متواصلة قام بها العلماء المختصون ، لذلك كان العالم مدينًا لهؤلاء القوم الذين أفادوه بعلمهم وتجاربهم فأخذ يرتقي سلم المجد بخطوات ثابتة ، فكم من هؤلاء العلماء من وصل الليل بالنهار غير مدخر كل ما يملك من جهد أو مال لتحقيق فكرة أو لاستنباط شيء جديد يعود بالنفع على الانسانية كلها ، وقد تكون المصادفة وحدها هي المنبئة بظهور اكتشاف جديد كما حدث أحياناً ، ومع ذلك فالفضل كله لمن قام باستغلال تلك المصادفة السعيدة استغلالاً ناجحاً ، فقد تقع مثل هذه المصادفة لكثير من الناس ولكن عين الباحث المدقق هي التي تجلو الحقائق وتظهر للناس ما يحتوي عليه هذا الكون من العجائب والأسرار

ومن أروع الأمثلة على مثل هذه الاكتشافات قصة اكتشاف البنيسيلين ذلك الدواء العجيب الذي اكتشف حديثاً واهتزت له الاوساط الطبية والعلمية في جميع البقاع ، ويعده كبار المشتغلين بالابحاث الطبية من أهم الاكتشافات التي ظهرت في تاريخ الطب كله ، فهم يقولون عنه انه أقوى دواء عرف حتى الآن في علاج الأمراض الناتجة عن الميكروبات ، كما وصفه بعضهم بأنه حجر الفلاسفة في عالم الطب ، ولقد كانت عقاقير السلفميد تعد اكتشافاً رائعاً وكانت لها شهرة فائقة في انقاذ حياة المرضى. ولكن سرعان ما اتضاءت هذه العقاقير بعد اكتشاف البنيسيلين ، إذ أن هذا الدواء قد نجح نجاحاً باهراً في علاج كثير من الأمراض الفتاكة التي لا تؤثر فيها مركبات السلفميد على الإطلاق ، ويظهر أثره في القضاء على هذه الأمراض بسرعة أثارت دهشة الأطباء كما ان النتائج التي حصلوا عليها من استعماله جعلتهم يؤمنون بأن هذا الاكتشاف هو فتح جديد في عالم الطب

ومكتشف البنيسيلين هو الدكتور فلامنج الذي يشغل وظيفة بكتريولوجي في مستشفى سان ماري بلندن ، وقد حدث في عام ١٩٢٩ أن ترك الدكتور فلامنج سهواً في معمله طبقاً زجاجياً معرضاً للهواء به مزرعة من مزارع الميكروبات التي كان يجري عليها تجاربه في ذلك الحين ، وكانت هذه الميكروبات من جنس ستافيلوكوك أو الميكروبات العنقودية

ويحتوي هذا الجنس على أنواع تحدث البثور والدمامل والجمرات وبعض أمراض العظام المزمنة وتسمم الدم ، وقد حدث أن جرثومة من جراثيم العفن التي كان يحملها الهواء كما يحمل الملايين غيرها من جراثيم قد سقطت في الطبق الذي يحتوي على مزرعة الميكروبات السالفة الذكر ، والعفن عبارة عن نباتات دنيئة تعيش على كثير من المواد العضوية كالخبز والجبن والفواكه والخضروات وغيرها ، فإذا تركت قطعة من الخبز مثلاً معرضة للهواء زمناً كافياً في مكان رطب فإنها تتعفن ، وينتج ذلك عن سقوط بعض جراثيم العفن التي يحملها الهواء على الخبز فتأخذ في النمو وتحدث عفن الخبز المعروف لكل انسان ، وهناك عدة أنواع مختلفة من العفن منها النوع المعروف علمياً باسم بنيسيليوم نوتام وهو الذي تدور عليه هذه القصة ، وكانت الجرثومة التي سقطت في مزرعة الميكروبات من هذا النوع الأخير ، فأخذت هذه الجرثومة في النمو وسط الميكروبات العديدة التي تحيط بها من كل جانب حتى كوّنت حجماً واضحاً من العفن داخل المزرعة . ولما عاد الدكتور فلامنج لفحص مزرعته الصغيرة لاحظ وجود هذا العفن بداخلها ، ولعله لم يكن راضياً في بادئ الأمر عن هذا الضيف الغريب الذي اندس وسط الميكروبات فسلبها نقاءها ، وهو أمر كثيراً ما يتذمر منه الباحث ، ولكنه عندما بدأ يدقق النظر في هذا العفن لاحظ شيئاً هاماً كان هو الباعث له على اكتشاف البنيسيلين ، وذلك لأنه وجد أن الميكروبات قد نمت بنجاح تام في جميع أنحاء المزرعة وانتشرت بها انتشاراً واضحاً إلا في منطقة معينة تحيط بالعفن من جميع الجهات ، كانت هذه المنطقة خالية من الميكروبات على الإطلاق ، فكان العفن قد حرّم على الميكروبات اقتحام هذه المنطقة والاقتراب منها ، وقد استنتج فلامنج من ذلك أن هذا العفن ربما كان ينتج مادة تقتل الميكروبات أو توقف نموها ، ولكي يتحقق من ذلك أخذ قليلاً من العفن ووضعه في أنبوبة اختبار تحتوي على سائل به بعض المواد الغذائية فبدأ العفن ينمو بسرعة فوق سطح هذا السائل ، وبعد أربعة أيام ظهر في السائل نجاة لون أصفر برّاق ذلك هو لون المادة الكيميائية التي بدأ النبات في إفرازها والتي أطلق عليها فلامنج اسم البنيسيلين نسبة إلى نبات العفن الذي يعرف باسم البنيسيليوم . ثم أتى فلامنج بعد ذلك العفن جانباً ووجه اهتمامه إلى ذلك السائل الأصفر ، فأخذ منه قطرة واحدة

ووضعها على مزرعة جديدة من ميكروبات ستافيلوكوك فأوقفت نموها في الحال

ولقد ظهر تقرير فامنج عن البنيسيلين عام ١٩٢٩ وفيه أكد ان قوة هذا الدواء الجديد في مقاومة الميكروبات لم تعهد من قبل في أي دواء آخر جرب استعماله ، فلو امكن فصل هذه المادة من السائل وتحضيرها نقية ، ثم التدرج من ذلك الى معرفة تركيبها الكيميائي والى إيجاد وسيلة لانتاجها صناعياً بواسطة التأليف الكيميائي لكان هذا الدواء الجديد هو أمضى سلاح عرف في عالم الطب لمحاربة الميكروبات ، ولم يكن فصل البنيسيلين من المواد الكيميائية الاخرى التي توجد معه في السائل من الامور الهينة ، ولذا فقد ظل استعماله فترة من الزمن قاصراً على تجارب المعمل اذ كانت له فائدة كبيرة في فصل الميكروبات التي لا تتأثر بفعله عن الميكروبات الاخرى التي يؤثر فيها

واستمر الأمر على هذا المنوال حتى كان عام ١٩٣٩ حيث فكر بعض علماء اكسفورد في استكمال الابحاث الخاصة بالبنيسيلين ، فبدأ الدكتور ابراهام بالاشتراك مع الدكتور كاين في عمل مزارع البنيسيليوم ، وسرعان ما حصل هذان الباحثان على نتائج اولية تدعو الى الدهشة ، فبينما عقاقير السلفميد لا تقوى على مقاومة الميكروبات اذا كانت في جموع حاشدة فقد برهن البنيسيلين على انه قادر على مقاومة الميكروبات مهما كان عددها ، وكذلك لا تستطيع عقاقير السلفميد ان تقوم بعملها في الجروح الملوثة بالميكروبات اذا كانت هذه الجروح تحتوي على دم أو صديد أو بقايا أخرى ، أما البنيسيلين فله تأثير عجيب في مثل هذه الظروف

وكان الدكتور كاين والدكتور جينجز اول من استخلصا من السائل الاصفر مقادير ضئيلة من مسحوق رمادي اللون ، ولقد كانا على علم بان هذا المسحوق ليس هو البنيسيلين النقي ، ومع ذلك فقد كان ذا أثر شديد في ميكروبات الدفتريا والالتهاب الرئوي والميكروبات العنقودية (ستافيلوكوك) والسبحية (ستربتوكوك) ، ولكن عرفت قوة تأثير هذا المسحوق في الميكروبات السابقة وهي في داخل انبوبة الاختبار ، فهل يكون له نفس الاثر اذا كانت تلك الميكروبات في جسم الانسان ؟ لا بد للإجابة عن هذا السؤال من اجراء التجارب التي تثبت ذلك ، ولما كان اجراء مثل هذه التجارب على الانسان أمراً غير ممكن ، فقد قام الباحثان باجراء التجربة الآتية على الفيران ، وذلك انهما أحضرا خمسين منها وحقنت كلها بكميات قاتلة من ميكروبات ستافيلوكوك وستربتوكوك معاً وقد قسمت بعد ذلك هذه الفيران الرقيقة الى مجموعتين متساويتين ، اما افراد المجموعة الاولى فقد تركت

وشأنها ، ولكن افراد المجموعة الثانية حققت كلها في فترات منتظمة بالبنيسيلين داخل
الاوردة ، وبعد يومين كاملين ماتت جميع افراد المجموعة الاولى وعددها خمسة وعشرون ،
ولكن تغلبت أفراد المجموعة الثانية على المرضى فلم يمض منها سوى فرد واحد بينما بقي
الاربعة وعشرون فرداً الآخرون في حالة جيدة

وقد استمرت بعد ذلك الأبحاث الخاصة بالبنيسيلين واشترك فيها غير من تقدم ذكرهم
كل من الدكتور فلوري وفلنشر وجاردنر وهيتلي ، وكان أول ما عمل في هذا الميدان هو
التحقق من ان البنيسيلين لا يضر بكريات الدم البيض كما جاء في تقرير فلننج ، ولقد
توصل هؤلاء الباحثون الواحد بعد الآخر الى النتيجة التالية ، وهي ان البنيسيلين يمنع بعض
أنواع البكتيريا من أن تنمو وتتكاثر داخل جسم المريض ، وليس ذلك بالامر الهين بل هو
انتصار عظيم في عالم الميكروبات ، والسبب في ذلك انه اذا لم تتكاثر الميكروبات داخل الجسم
فإن كريات الدم البيض تستطيع ان تغلب عليها بسهولة ، فهي تنتقل الى حيث توجد هذه
الميكروبات وتلتهمها وبذلك يسلم الانسان من شرها وينجو من الهلاك

وبعد انقضاء عام واحد على بدء هذه الأبحاث في اكسفورد وفق هؤلاء الباحثون الى
تخصيص مسحوق أصفر اللون هو البنيسيلين النقي ، وكان هذا التوفيق نتيجة للجهود
المتواصلة والعزم الصادق الذي لا يلدن ، فقد أجريت في خلال هذا العام كثير من التجارب
الشاقة وعولجت جميع الصعوبات التي اعترضت تلك الأبحاث بمختلف الطرق حتى أمكن
التغلب عليها في نهاية الامر ، وبذلك استطاع هؤلاء العلماء استخلاص البنيسيلين النقي من
السائل الذي يعيش عليه نبات العفن

ولقد بين الدكتور ابراهام قوة تأثير البنيسيلين بالتجربة الآتية ، فقد عمل محلولاً
مركزاً كل ، التركيز من السلفايريدين والسلفاتيازول وهما من أحسن العقاقير الحديثة المستعملة
في مقاومة الميكروبات ، ووضع قدرًا من كل من هذين المحلولين في بعض المزارع الغاصة
بالميكروبات ، الفتاكة ، فلم يستطع أحدهما ان يقف نموها وقفًا تامًا ، ولكنه قام
بتجربة البنيسيلين على مثل هذه المزارع فوجد انه لا يترك ميكروباً واحداً داخلها دون
ان يقف نموه في الحال ، ولم يقف الامر عند هذا الحد بل ان البنيسيلين له نفس هذا
التأثير اذا خفف من محلوله المركز تخفيفاً هائلاً وذلك بوضع قطرة واحدة منه في خمسمائة الف
قطرة من الماء ، وقد وجد بعض الباحثين الآخرين ان البنيسيلين الخفف بنسبة واحد الى
مليونين يقضي على ميكروب السيلان ، والخفف بنسبة واحد الى مليون يقضي على

ميكروب الالتهاب السحائي ، والخفف بنسبة واحد الى ربع مليون يقضي على ميكروب الالتهاب الرئوي

وقد جرب البنيسيلين بعد تحضيره نقيًا في علاج بعض المرضى الذين كانوا بالمستشفيات عند ما أخفقت جميع الوسائل الأخرى في علاجهم فانتشلهم ذلك الدواء العجيب من الموت المحقق . ومن الأمثلة على ذلك ان كان هناك مريض بالالتهاب السحائي أخفقت في علاجه كافة العقاقير ومنها عقاقير السلفميد المشهورة ، وقد يئس الأطباء من علاج هذا المريض فقدم ليكون موضعاً للتجربة ، فأخرج الأطباء كمية من السائل الموجود في قناته الشوكية بواسطة حقنة ، ثم وضعوا مكان هذا السائل كمية من البنيسيلين ، كما أعطوا المريض حقنة أخرى من البنيسيلين في العضل ، وبعد عشرة أيام كان هذا المريض صحيحاً معافاً ، وكان أثر البنيسيلين في المصابين بتقيحات العظام المزمنة مما يدعو الى الدهشة ، فقد ظل بعض هؤلاء المرضى يلازمون الفراش عدة شهور ومنهم من ظل مريضاً بضع سنوات ، ولكنهم استطاعوا ان يسيروا على اقدامهم بعد أسابيع قليلة من علاجهم بالبنيسيلين ، وقد استعمل البنيسيلين أيضاً بنجاح تام في حالات تسمم الدم والالتهاب الرئوي

وقد سافر بعد ذلك الدكتور فلوري والدكتور هيتلي الى الولايات المتحدة بالطائرة ومعهما كمية من نبات البنيسيليوم ، وكان الغرض من هذه الرحلة رجاء السلطات هناك اتخاذ التدابير اللازمة لتحضير كميات كبيرة من البنيسيلين لأن بريطانيا كانت في هذا الوقت تمر بساعات عصيبة وكانت الحرب الجوية على أشدها فلم تستطع أي شركة من الشركات الكيميائية البريطانية أن تأخذ على عاتقها حينئذ إنتاج مقادير كبيرة من البنيسيلين ، ولا سيما ان ما ينتجه النبات من هذا الدواء ضئيل للغاية ، إذ يجب زرع مقادير هائلة من البنيسيليوم لاستخلاص ما يكفي من الدواء لعلاج مريض واحد، فقد قدر ان الجرام الواحد من مسحوق البنيسيلين يستخرج من حوالي مائة جالون من السائل الذي ينمو عليه النبات ، وقد حدث في إحدى الحالات التي كانت موضع التجربة أن نفدت كمية البنيسيلين أثناء العلاج ، وكان المريض قد ظهرت عليه كل علامات التحسن ، ولكنه مات قبل أن تحضر كمية أخرى من الدواء لاتمام العلاج

ثم تغيرت بعد ذلك ظروف الحرب واستطاعت بريطانيا أن تنشئ عدداً من المعامل الضخمة لإنتاج البنيسيلين كما انها أخذت في الوقت الحاضر في انشاء عدد آخر من هذه المعامل على وجه السرعة ، وبقدر ما تسمح به مقدراتها الانشائية ، إذ أن المعمل الواحد من

هذه المعامل يحتاج الى مئات الآلاف من الزجاجات التي يزرع بداخلها نبات البنيسيليوم كما انه يحتاج الى كثير من المواد الكيميائية والأجهزة التي تستخدم في مختلف العمليات ، هذا عدا الكيميائيين والعمال الذين يقوم كل فريق منهم بأحدى عمليات الانتاج ، ويستخدم في هذه المعامل عدد كبير من الفتيات يقمن بغسل الزجاجات وتعقيمها وعمل المزارع بداخلها واحضار السوائل التي يتغذى عليها النبات وجمع السوائل المحتوية على البنيسيلين وتركيزها الى غير ذلك من العمليات . وقد أنشئت في الولايات المتحدة كذلك عدة معامل لانتاج البنيسيلين بنفس الطريقة المتبعة في المعامل البريطانية

والسبب في سرعة انشاء هذه المعامل هو ان البنيسيلين قد جرب بنجاح منقطع النظير في معالجة الجرحى في ميادين القتال ، وذلك لأن الجروح التي يصاب بها الجنود تكون دائماً معرضة للاصابة بالغرغرينا الخطيرة ، وقد وجد ان البنيسيلين لا يضارعه دواء آخر في معالجة مثل هذه الجروح والعمل على التآملها ، وطريقة استعماله هو ان يذاب مسحوق البنيسيلين في الماء المعقم ويحقن داخل الأوردة او العضلات او يرش المسحوق كما هو على الجروح مباشرة ، وتستخدم اي واحدة من هذه الطرق الثلاث حسب نوع الاصابة ، وليست هناك فائدة كبيرة من أخذه عن طريق الفم لأنه يتفكك في الحال بفعل العصارات الموجودة في المعدة ، وقد انقذ البنيسيلين عدداً كبيراً من الجنود الجرحى في مختلف الميادين من خطر بتر اعضاءهم

اما طريقة تحضير البنيسيلين في المعامل الخاصة بانتاجه فتكون بزرع نبات البنيسيليوم في زجاجات خاصة أعدت لهذا الغرض ، ويوضع في كل واحدة منها كمية من السائل الذي يتغذى عليه النبات ، وهذا السائل عبارة عن محلول السكر بنسبة أربعة في المائة كما يوجد به أيضاً كميات ضئيلة جداً من بعض الأملاح المعدنية ، وبعد ذلك يتم تعقيم الزجاجات والسائل الموجود بداخلها تعقيماً كاملاً بوضعها في افران خاصة تسمى اوتوكلاف ، ثم يوضع داخل كل زجاجة كمية من جراثيم العفن وتسد فوهتها بقطعة من القطن لتمنع وصول أي أنواع أخرى من الجراثيم او الميكروبات الى داخل الزجاجات ، وفي الوقت نفسه تسمح بدخول الهواء لكي يتمكن العفن اثناء نموه من التنفس ، ثم توضع هذه الزجاجات في غرف لها درجة حرارة خاصة ، فيبدأ العفن في النمو تدريجياً حتى يكون طبقة سميكة فوق سطح السائل بعد انقضاء اسبوعين تقريباً من بدء هذه العملية ، وهو يفرز في السائل اثناء هذا النمو مادة البنيسيلين فيؤخذ السائل وتستخرج منه هذه المادة بعمليات معقدة ، ولهذا السبب فان المقادير التي تستخرج من هذا الدواء محدودة جداً في الوقت الحاضر ، ويرسل الجزء الأكبر منها الى

القوات المحاربة، ولا يترك لاستعمال المدنيين إلا حوالي عشرة في المائة من الانتاج الكلي، وهذا الجزء اليسير لا يسمح باستعماله إلا بتصريح خاص ممن بيدهم الأمر، وتصل يومياً الى الدكتور فلفنج نفسه والى مجلس الابحاث الطبية ووزارة التموين البريطانية مئات من الرسائل التي يكتبها الاطباء وغيرهم في مختلف أنحاء إنجلترا لطلب الحصول على كمية من البنيسيلين لمعالجة المرضى الذين يكونون في حالة الخطر، ولكنه لا يعطى غالباً إلا في حالة الأمراض الفتاكة التي لم يجرب في معالجتها قبل ذلك لمعرفة قوة تأثيره عليها، وليس هناك من أمل في الحصول على كميات كبيرة من هذا الدواء العجيب في الوقت الحاضر إلا بعد معرفة تركيبه الكيميائي، ولا يزال هذا التركيب سرّاً من الأسرار، وهناك عدد كبير من الابحاث المختلفة التي يقوم بها الآن أكبر الكيميائيين في المصانع والجامعات البريطانية والأمريكية للوصول الى هذه الغاية، وهم يتبادلون يومياً المعلومات والنتائج التي يحصل عليها كل منهم بغية الوصول الى هذا الغرض النبيل، وقد حصلوا فعلاً على بعض الظواهر التي قد توصلهم الى معرفة التركيب الكيميائي للبنيسيلين، ومتى كملت هذه الجهود بالنجاح يكون من المستطاع تحضير كميات كبيرة منه بواسطة التأليف الكيميائي بدلاً من استخراجها من النبات الذي لا يكون إلا بكميات محدودة، ويظن بعض العلماء المشتغلين بهذه الابحاث ان هذا اليوم ليس ببعيد

...

ومما يجعل البنيسيلين مفضلاً كثيراً في علاج الامراض الميكروبية على أنواع السلفميد انه لا يحدث أي أثر سيء في الكليتين وفي القاب، وانه لا يحدث أي تسمم عام كما يحدث استعمال السلفميد، ولا يشاهد في استعماله هذه الحساسية الخاصة التي ترى حين استعمال السلفميد الذي لا تتحمله بعض الاجسام ولو كانت المقادير المستعملة قليلة

وكان من الطبيعي بعد ان اكتشف البنيسيلين وعرفت مزاياه المتعددة ان يوجه العلماء اهتمامهم الى البحث في الانواع الأخرى من البنيسيليوم لعلمهم يجدون من بينها ما ينتج أنواعاً أخرى من العقاقير، وقد توصل بعضهم فعلاً الى اكتشاف مادة أخرى تسمى باتيولين بكونها نوع آخر من البنيسيليوم، وقد اكتشفت هذه المادة منذ ثلاثة أشهر فقط (اوائل ديسمبر ١٩٤٣) ووصفت كعلاج للبرد، ولا شك في ان الابحاث المتعددة التي تسير الآن في هذا الاتجاه ستظهر لنا عقاقير جديدة لم يعرفها الطب من قبل.

استغلال الاراضى البور

بشمالي الدلتا في بضع سنوات

ديوسف فارسي*

استقرّ العرف في مصر على ان يجري اصلاح الاراضى البور وفق نظام الري الدائم وذلك بشق الترع والمصارف على اختلاف درجاتها ، وغسل التربة باستخدام زراعة الارز ونحوه ولا ريب ان هذا النظام سديد من الناحيتين الهندسية والزراعية . بيد انه من الوجهة العملية شديد البطء ، لا يواقي طموحنا الى الاصلاح العاجل . فنظام الري الدائم يتابع في سيره مدى كفاية المياه المخزنة بأسوان وجبل الاولياء . وزيادة هذه المياه تتطلب تعبئة الخزانات القائمة او بناء غيرها . وذلك يقضى دراسات عميقة ونفقات طائلة يتعذر معها الاقدام على التنفيذ السريع ولا سيما في ظل المحنة العالمية الحاضرة

على ان السياسة المائية التي سادت في القطر المصري حقبة من الزمن ، لا ينتظر ان يحدث فيها بعد الحرب انقلاب فيما يتعلق باصلاح الاراضى البور، فالتوقع ان يجري الاصلاح كما كان من قبل بنسبة تترجح بين عشرين وثلاثين الفا من الافدنة في السنة ولما كانت الاراضى البور بشمالي الدلتا تبلغ مساحتها نحو مليونين من الافدنة ، فلا بد من نحو قرن لكي يتم اعدادها للزراعة جميعاً . واذن تبقى مساحات كبيرة معطلة ترتقب نوبتها البعيدة في الاصلاح

ومما هو معلوم ان زيادة المساحة عامل كبير في زيادة الانتاج الزراعي ، ومصر أحوج ما تكون الى ان تزيد في انتاجها لكي تعين الشعب على الخلاص مما يعانیه من بؤس وضنك وحسبنا مثلاً نكبة الصعيد التي رفعت لنا الستار عن حقائق مروعة كينا نغضي عنها العيون . واذا استطاعت مصر أن تزيد في انتاجها الزراعي حتى يفيض عن حاجتها ، تسنى لها أن تمد بالفائض عنها بلاداً أضرت بها الحرب وجعلتها في حاجة الى العون

* المتخرج في المدرسة العليا للزراعة من جامعة أنجيه بفرنسة ومن أعضاء اللجنة الاستشارية للشؤون الاقتصادية بوزارة المالية . وقد عرض هذا البحث على تلك اللجنة في جلستها المنعقدة أول مارس ١٩٤٤

بيان المشروع

ولا يتم لنا استغلال الاراضي البور في شمالي الدلتا في وقت قصير ، إلا اذا أفلعنا في اصلاحها عن نظام الزراعة المضغفة Culture intensive ^(١) الذي يستدعي الري الدائم ، ولجأنا الى نظام الزراعة الموسعة Culture extensive ^(٢) الذي يساعدنا على تنفيذها اتباع طريقة الري الحوضي . على أن نكتفي بمحصول واحد في السنة ، وهو في بلدنا المحصول الشتوي ، سواء كان من الفصيلة النجيلية أو البقلية

ويتطلب هذا النظام تقسيم الاراضي أحواضاً تحدها الترع والمصارف الرئيسية التي تحفر لذلك الغرض ، حتى تغمر الأحواض وقت الفيضان بمياه النيل ، على غرار ما كان متبعاً في مصر قبل اتساع الري الصيفي ، وما هو متبع حتى اليوم في جنوبي الصعيد . ويجب أن يراعى في حفر تلك الترع والمصارف الرئيسية أن تكون صالحة للري الدائم حين تتحول اليه الاراضي في المستقبل بالتدريج المسير لتوافر المياه الصيفية وكفاية الدولة المالية وما اليهما من العوامل ومتى يتم حفر الترع والمصارف بجسورها ، وانشاء الطرق اللازمة لها ، يشرع في غسل التربة أكثر من مرة على حسب مقدار الملوحة في الارض — بما يندفق من المياه إبان الفيضان على الطريقة الآلية المعروفة بـ « تضريب التربة » بالمياه . وطريقة « التضريب » أكثر عوناً على سرعة إذابة الأملاح القابلة للذوبان ، فاذا تشبعت المياه بالأملاح المذابة سريعاً صرفت مباشرة صرفاً سطحياً سريعاً أيضاً وتخلصت منها التربة كل التخلص . ولا مزية ان هذه الطريقة أفضل وأسرع من طريقتنا المألوفة ، لاننا في الأغلب نترك المياه تترشح في باطن الارض . فيظل أثر الأملاح في الارض باقياً

(١) هي زراعة تدريجية تكون بواسطة رؤوس أموال كبيرة وترمي الى غلات عظيمة جداً تستخرج من مساحات محدودة بعض الشيء . وفي هذه الحال لا احجام عن تحسين التربة وتعزيز السباخ البلدي بأسمدة كيميائية اضافية وتغذية الحيوان بسخاء وشراء آلات محكمة وتقايي مختارة وحيوانات نتاجها ممتاز . واذ ان العملية الزراعية في الواقع عملية صناعية حقاً يجب أن تصفى برنج كاف . على ان هذا الرشح قابل للزيادة في مقادير كبيرة ، اذا أجرى المزارع عمله ، وهو به خبير في فطنة وحسن تصرف

(٢) هي الزراعة التي تطبق على الاطيان الفسيحة بموارد قليلة ، ولا يكون تطبيقها إلا في بلاد حديثة العمران وفقيرة ، تكون أراضيها قليلة الخصب ، أو في مناطق لا تكثر فيها أسباب الاصدار . غير ان هذه الزراعة لا تنفي تحسين التربة . ومن المعقول ان تزرع مساحات كبيرة من غير حصول على غلات وافرة ، وذلك في البلاد الحديثة العمران مثل اميركة وافريقية واسترالية ، حيث ثمن الارض الخصبة لا تسوى شيئاً أو لا تكاد تسوى . هذا واذ ان طريقة الزراعة مرتبطة بنظام الاقتصاد في منطقة من المناطق يتحتم استغلال الارض شيئاً شيئاً فتصير مناطق الزراعة الموسعة بلاد زراعة مضغفة ، وذلك من جراء النضال الاقتصادي

فأما الآلات المهيأة لتضريب التربة بالمياه فليس هذا مقام الافاضة في وصفها . وقد تعوق الاحوال الحاضرة سبيل الحصول عليها في مصر . ومن الممكن أن يستعاض الآن عن عملية التضريب بهذه الآلات بعملية اخرى تقرب منها وهي حرث الارض بالمحاريث والامشاط في أثناء غمرها بالماء مرات . على أن تكون كل حرثة في اتجاه متعامد مع سابقتها

وبعد التضريب على هذا النحو تُغمر الأرض بمياه الفيضان المشبعة بالغرين «الطمي» فترة محدودة . ثم تصرف المياه الى المصارف صرفاً بطيئاً ابقاءً على الغرين الراسب على سطح الأرض وحينئذ تنثر بذور احد المزروعات النجيلية كالشعير والقمح أو البقلية كالقول والبرسيم ، كما هو حادث في حياض الوجه القبلي . ولا نعدو الحقيقة اذا قلنا ان الشعير او غيره سيغل في مناطق شمالي الدلتا التي تهمل فيها الامطار انتاجاً او فر مما يغله الصعيد الذي يشهد جفاف جوه وحرارته

ومن الطبيعي أن نتبع في زراعة تلك الاراضي دورة ثنائية : سنة نجيلية . وسنة بقلية . وستؤتي النجيلية كالقمح والشعير انتاجاً مرضياً سواء اسمدت الاراضي بالنترات ام بذرت بعد استجمام وتشمس لاحق لزراعة بقلية . واما البقلية وأهمها القول فاذا سمدت بـ « سوپر فسفاة » وعولجت بالبكتيريا الخاصة بها ، فقد تعيد لأراضي الدلتا الطينية عهدها الذي اشتهرت به منذ الفراعنة في جودة الانتاج الزراعي

تنفيذ المشروع

والآن وقد اوضحنا ان في الامكان سهولة استغلال الاراضي البور اذا اتبعنا فيها نظام الزراعة الموسعة ، نضيف الى ذلك ان الأيدي العاملة في مصر كثيرة ، والمياه موفرة ، والتربة ليست على الانتاج بمستعصية . الا أنه لا بد لتنفيذ المشروع من هم عالية ، وعزائم ماضية . وقد علمنا وشهدنا كيف تقوم فرق هندسية في الجيوش المحاربة باقامة الجسور وتمهيد الطرق ومد السكك الحديدية وحفر الخنادق في أقصر وقت مستطاع . فلم لا نعهد الى المناطق الخاصة بالسكان من الفلاحين الشبان . فنجدد منهم فيلقاً نستعين به على تعمير هذه الاراضي البور وتسميرها ، ولم لا نندب الجيش الم رابط لهذه المهمة فلا يضطر الى تسريحه بزوال اسباب وجوده

وانه ليجل ان نشاهد اولئك الشبان ، وهم في زيهم العسكري ، وخيامهم المخروبة ، يتمرنون على فلاحه الارض واستعمال السلاح معاً . فيحفرون الترع والمصارف باشراف المهندسين

ثم يزرعون ويحصدون بأشراف خريجي «المدارس الزراعية» ولا تقتضي اقامتهم بناء منازل قد تنقل نفقتها كاهل المشروع . اذ كفتنا خيامهم وحياتهم الرياضية العسكرية مؤونة التشييد والبناء . فان فقد المشروع بهذه الوسيلة كان لهؤلاء الشبان ان يفاخروا بأنهم احيوا اراضي شمالي الدلتا واعادوا اليها مجدها التليد ، اذ كانت مستودع الغلال للشرق

ولو جرينا في الترع والمصارف الرئيسية المطلوبة على نظام بعض المصالح الحكومية من حيث التخطيط والقطاعات ، فان ما يخص الفدان الواحد من مكعبات الحفر لن يزيد بأية حال على ٥٠ متراً مكعباً (ريباً وصرفاً) . فالعامل مهما ضؤل مجهوده لا يقصر عن انشاء ما تتطلبه مساحة خمسة افدنة في السنة وخدمتها في الزراعة

ومن هذا يتوضح لنا ان جيشاً من العمال لا يربو على مائتي الف رجل يضطلع بتنفيذ هذا المشروع ويقوم بزراعة مليون من الافدنة في سنة واحدة . فان جاوزها لم يعد السفتين . وتعبئة مائتي الف أمرٌ هين بالاضافة الى ما يجند في الجيوش الجرارة من الملايين ورب قائل ان المشروع لا يسلم من بعض الاعتراضات ، شأن كل جديد . ونحن لا نريد ان نتوهم ما يعترض به على المشروع ونجادل فيه . فنحن نؤمن بان لكل مشروع ماله وما عليه ولكن تلك الاعتراضات مهما تكن فلا ينبغي ان تقف حجر عثرة في سبيل تنفيذ المشروع ، كما لم تقف عيوب الري الدائم حجر عثرة في سبيل تنفيذه الى اليوم . وحسبنا ما أبانه المهندس ولكس في كتابه عن الري المصري ، ولا بأس بأن نقوم بتجربة في مساحات من هذه الاراضي البور نتبين بها مقدار أثر المشروع ومدى نجاحه

فوائد المشروع

نحمل فوائد ذلك المشروع فيما يلي :

أولاً : من الوجهة الفنية

١ — ان تنفيذ هذا المشروع لا يحتاج الى :

ا — تلبية الخزانات او انشاء غيرها

ب — معظم أعمال الري الصناعية بسبب قلة المجاري واختلاف طرق توزيع المياه

ج — الآلات الخاصة بحفر الترع والمصارف ، وذلك لوفرة الايدي العاملة

د — الماشية في الأعمال الزراعية التي تلزم للاصلاح ، فمن الممكن جلب الآلات

الآن اذ أصبحت المواصلات البحرية قصيرة ومأمونة

٢ — ان هذه الأراضي بما تأخذ من مياه قمة الفيضان تصبح صمام الأمن لمصر الشمالية فلا يهددها الغرق وبذلك تساعد حياض مصر العليا على اتمام هذه المهمة . ونرى ان هذا الزمام الشاسع قد يفضل حياض الوجه القبلي لوجود الصمام في قلب الخطر نفسه

ثانياً : من الوجهة الاقتصادية

يغري بتنفيذ المشروع الآن ارتفاع اسعار المنتجات الزراعية في اوقاتنا الراهنة ، فيسهل استرداد ما أنفق في سبيل اصلاح تلك الأراضي في زمن قريب . ولو أنطقنا لغة الارقام لأدركنا انه حينما يتم اصلاح مليون فدان في سنتين على أساس استغلال المراوحة بين زراعة الجبوب والبقول ، ينتج لنا نحو من مليون طن من محصوليهما في السنة ، وثمنه زهاء ٢٥ مليون جنيه . وقد لا يتكلف المشروع هذا المبلغ ، فكان انتاج سنة واحدة كفيلاً بسد نفقاته كلها . كما انه يكفي لتغذية ما يقرب من خمسة ملايين نسمة مدة سنة كاملة . وبديهي ان صافي الربح للـ ٢٥ مليون جنيه يصبح بعد السنة الاولى زيادة مطردة في ايرادات ميزانية الدولة

ثالثاً : من الوجهة الاجتماعية

اذا عبأنا جيشاً من الشبان ليقوم بتنفيذ المشروع أتحنا لهم فرصة التمرس بالعمل مع راية النظام والقواعد الصحية ، فيرتدون رجالاً أقوياء عاملين ، ينهضون بالعظام . وحين تنتهي فترة التجنيد قد لا يفارق الجنود أو أكثرهم هذه المناطق التي ألفوها ولعمروا بها ، فلا يلبثون أن يستوطنوها ويعمروها

وسيفتح هذا المشروع الباب على مصراعيه لآلاف العمال الذين يعملون الآن في جيوش الحلفاء ، بعد أن تقل الحاجة اليهم ، وبخاصة حين تضع الحرب أوزارها

كذلك يشق المشروع أفقاً واسعاً لخريجي المدارس الهندسية والزراعية فيلقون في تلك الرحاب الفسيحة ما يقوي مرائتهم ويشحذ مهارتهم ، فيستفيدون ويفيدون

وقصارى القول ان مصر تثب الى الأمام وثبة بعيدة اذا نهضت بتنفيذ هذا المشروع غير متوانية ولا مسووفة ، فانها بذلك تسد حاجتها الحاضرة والمستقبلة الى كل ما له علاقة بالاصلات الزراعية والحيوانية . ومن واجب مصر ان تسارع الى تحقيق ذلك رفعا لمستوى الحياة الاجتماعية بين طبقات الشعب ، وتمهيداً لأبناء الوطن ، في الغد القريب او البعيد ، ان ينعموا بحياة مطمئنة وعيش رغد (١)

(١) مما يؤيد وجهة نظر هذا المشروع انه بعد تقديمه الى اللجنة جاء في صحيفة الاهرام ما يفيد ان إنجلترا عدت الى اصلاح صحراء بريطانيا بتابع نظام الري الحوضي المصري ، فاستغلت أربعة ملايين من الفدادين ، أي نصف ما ننشد نحن استغلاله

اوائيل المشترعين

في الاسلام

لمحمد عبد الغني حسن

كان الصحابة بعد عصر الرسول يقضون بالأحكام الفقهية تبعاً لأحكام القرآن وأقوال النبي وأفعاله ، فلم تكن هناك حركة فقهية بالمعنى العلمي المعروف : ولكنهم كانوا يقضون بالاجتهاد والرأي وتتبع الرسول تبعاً لأحوال البلاد المفتوحة بشرط ألا يتعارض قضاؤهم مع الكتاب والسنة الصحيحة ، وإن يبنى على أساس القواعد العامة فيهما ولم يكن الصحابة على حال واحدة من الفقه والقضاء بعد وفاة النبي عليه السلام ، بل اختلفت أحوالهم تبعاً لاختلاف علمهم وشجاعتهم الأدبية وطول ملازمتهم للرسول . وليكننا لا نجد بينهم أمضى في الفقه من عمر بن الخطاب . فكان يمضي فيه على اجتهاد ورأي ومعرفة . ولقد تمت على يديه بعض مبادئ في الفقه كالتشديد في الرجم ، والحد في الخمر وصلاة التراويح جماعة ، والنهي عن التمتع في أشهر الحج . وهي مبادئ تدل على اتساع نظر هذا الخليفة الفقيه ، وعلى جرأته . كما حدث في عقوبة الرجم في الزنى ، فقد تشدد في تنفيذها وأوصى بها . واستدل بما سمعه هو وغيره من الصحابة من رسول الله وبما رآوه من عمله : فقال عمر : — (لقد خشيت أن يطول بالناس زمان حتى يقول قائل لا نجد الرجم في كتاب الله فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله . ألا وأن الرجم حق على من زنى وقد أحصن اذا قامت البينة أو كان الحمل أو الاعتراف ، ألا وقد رجم رسول الله ورجمنا بعده)^(١) . ولم يخالف في الرجم إلا بعض الخوارج وبعض المعتزلة ، ثم استقر إجماع المسلمين على وجوب الرجم أما حد الخمر فهو عند عمر ثمانون جلدة ، وقد كان العمل قبله يجري على خلاف ذلك . فقد كان الشارب في عهد النبي وأبي بكر وأول عهد عمر يضرب بالأيدي والنعال والأردية^(٢)

(١) رواه البخاري وغيره (فتح الباري ١٢ : ١٢٦ — ١٢٧)

(٢) صحيح البخاري — كتاب الحدود

فجعل عمر حده أربعين جلدة ثم زاده الى ثمانين . ويُعدُّ عمل عمر في هذا من باب التعزير ، وقد ألجأه اليه شدة الحاجة اليه لانهمك الناس في الشراب
أما جمع الناس على التراويح في رمضان . فقد ورد (عن عائشة أن النبي صلى في المسجد فصلى بصلاته ناس ، ثم صلى الثانية فكثرت الناس ، ثم اجتمعوا من الليلة الثالثة أو الرابعة فلم يخرج اليهم رسول الله ، فلما أصبح قال : رأيت الذي صنعتم فلم يمنعني من الخروج اليكم إلا أني خشيت أن تفترض عليكم ، وذلك في رمضان)^(١)

فلما جاء عمر خرج فرأى الناس اوزاعاً يصلون في المسجد فجمعهم على صلاة التراويح ولعلَّ شخصية عمر القوية وقوة عزمته كانتا أفضل الأسباب في أخذ الناس بما لم يألفوه في عهد الرسول والصديق . فلو كان غير عمر ما استطاع أن يستحدث في الاسلام ما لم يحدث في عهد سلفيه . إلا أنه جمع الى صفة الامام الحاكم صفة الفقيه المشرع . وكانت هذه الصفة أكبر عون له على مواجهة الناس بما لم يعهدوه في عهد الرسول ولقد عدَّ بعض الناس عمله هذا بدعة جديدة في الاسلام ! ولكنه هو نفسه ردَّ عليهم في ذلك ردًّا حاسماً . فانه لما رأى الناس في المسجد مجتمعين حول أبي بن كعب يصلي بهم التراويح قال : « نعمت البدعة هذه ! » . والبدعة هنا هي الجماعة في التراويح ، فقد امتنع النبي عليه السلام عنها خشية أن يشق على أمته بافتراضها عليهم . والبدعة هنا كذلك هي زيادتها الى عشرين ركعة . وقد كان النبي لا يزيد في النفل على احدى عشرة ركعة^(٢) ولم يكن عمر رضي الله عنه يحكم في الأمور استبداداً برأيه ، بل كان يشاور الصحابة وينظرهم حتى ينكشف وجه الحق . ولهذا وجدت فتاويه من المسلمين صدراً رحباً وقبولاً كثيراً ، فلم يتخرجوا بها ولم يضيقوا . على خلاف عليّ كرم الله وجهه الذي كان يتابعه أهل الكوفة . وكان عند عمر من المرونة الفقهية ما يجعله فقيهاً بطبعه

وكان للرأي والاجتهاد عنده اعتبار كبير ويشبهه في ذلك عبد الله بن مسعود الذي كان يسلك طريقته ويتعصب لمذهبه حتى قال : — (لو سلك الناس وادياً وشعباً ، وسلك عمر وادياً وشعباً . لسلكت وادي عمر وشعبه) . وبلغ من ثقة عمر فيه أن أرسله الى الكوفة ليعلم أهلها ويفقههم ، وقال لهم : لقد آثرتكم — بعد الله — على نفسي : ولم تكن حياة ابن مسعود في الكوفة اخلاذاً الى السكون وركونا الى الدعة . بل كثيراً ما ملأها بعلمه ومناظراته وفتاويه

(٣) رواه البخاري ومسلم وغيرهما . نيل الاوطار ٣: ٦١

(٤) نيل الاوطار للشوكاني طبع منير الدمشقي ج ٣ ص ٦٤

وهناك فقيه رابع من فقهاء الصحابة وأعلامهم وأجدرهم بالتصدر للفتيا والقضاء . هو زيد بن ثابت . وتأتي منزلته في الفقه من طول ملازمته للنبي عليه السلام وكتابته الوحي . وقد امتاز بالأمانة في النقل والتعمق في الفقه ، ولهذا وثق به عمر واستخلفه في كل سفر . ولقد فرق عمر الناس في البلدان واستبقى في مدينة الرسول زيدا ، فهو أثير عنده قريب منه . يرجع اليه في الغامض ، ويستشير في الأمر العارض . ويقدمه على كبار الصحابة ولا يقدم واحداً منهم عليه . وكذلك كان مع الخليفة عثمان وقد شهد له سعيد بن المسيب أركى شهادة (١)

*

أما عبدالله بن عباس فقد كانت له في الفقه قدم راسخة . شهد له الكثير بالعلم والفقه والتضلع من العربية والتمكن من الشعر والفهم لكتاب الله والتثبت من الحساب والقراء (٢) . وكان عمر يعظمه ويحمله لا لقربته من رسول الله عليه السلام ، ولكن لعلمه وفضله

وهو أحد الستة الذين هم أكثر رواية عن النبي ، وهم أبو هريرة وابن عمر وجابر وابن عباس وأنس وعائشة . وإذا اختص أنس وأبو هريرة بالرواية فقد جمع ابن عباس اليها الفقه والعلم . فهو من أوائل فقهاء الاسلام . وكان لغزارة علمه يقيم في مكة فتشد إليه الرحال ويقصده الطلاب من جميع الاقطار

وكان هو وابن مسعود وزيد بن ثابت الثلاثة الذين يقوم الصحابة بقولهم في الفقه ويعتدون بكلامهم

وقد شهد له العلماء جميعاً بغزارة العلم والتبحر فيه . ومن ذكره منهم علي بن المديني ، ومفيان بن عيينة ، وعبدالله بن طاهر والأزرقي صاحب كتاب مكة . وله غير ذلك أخبار طوال في كتب التاريخ والطبقات

وإذا صح أن النبي عليه السلام توفي وعمر ابن عباس ثلاث عشرة سنة في رأي ، أو خمس عشرة سنة في قول ابن حنبل — إذا صح ذلك كان عجباً أن يعد ابن عباس من أكثر الصحابة رواية للحديث . وموضع العجب أن تسمح له حدانة سنة بحفظ قدر من الأحاديث يضعه في مصاف الستة الكبار من رواة الحديث . ولكن العلم لا تمنع منه حدانة ، والفضل لا تقف دونه طرأة السن . وقديماً قال الشاعر : —

(١) الجزء الخامس ، تهذيب تاريخ ابن عساکر

(٢) تهذيب الاسماء واللغات للنووي الجزء الاول مادة عبد الله

فما الحداثة من حلم بممانعة قد يظهر الحلم في الشبان والشيب

*

وهناك عبد الله بن عمر ، ولكنه يختلف عن ابن عباس . فابن عباس كثير الرواية كثير الفتوى ، وابن عمر قليل الكلام قليل الفتوى . ولكن اقلاله من القول والفتوى لم يمنع من قيمته الفقهية . فهو يقيم بالمدينة ويفد عليه الوفود من الناس بغية الاغتراف من علمه

*

وتشاء الاقدار السعيدة أن يكون للمرأة المسامحة حظ المشاركة في الحركة الفقهية القائمة في مكة والمدينة وغيرها بعد وفاة الرسول . فليس الفقه خاصاً بالرجال ولا وفقاً عليهم وخاصة اذا كانت المسائل الفقهية تتعلق بأحوال المرأة وما يعرض لها وما يكون في بيتها . فرى السيدة عائشة تشترك مع الرجال في رواية الحديث . وزاها من الستة الأكثر رواية لحديث رسول الله عليه السلام ، وزى خلقاً كثيراً من الصحابة والتابعين يروون عنها . وبقيت في المدينة يفد اليها السائلون من صحابة الرسول فتجيبهم ، وخاصة في الفرائض . ولم يصح أنها دخلت الشام ^(١)

*

هؤلاء السبعة هم أكثر الصحابة اشتغالا بالفقه بعد وفاة الرسول . وكان عمر أعجبهم في هذا . فلم تشغله الخلافة عن الفقه . وهو في أحكامه رجب الصدر لا يضيق بالنقد كما يفعل ضيقو العطن : وقد يخطئ في المسألة فيعترف بالخطأ ويقول : أصابت امرأة وأخطأ عمر ! . ويكتب كتاباً في مسألة « السكالة » في الميراث ثم تحضره الوفاة ، فيمحو الكتاب ويقول لأصحابه : — (ترون في السكالة رأيكم) ...

وكان من الطبيعي أن يحدث اختلاف بين فقهاء الصحابة في بعض المسائل ، وهو خلاف لا يرجع الى صلب الدين الاسلامي نفسه ، فذلك ما لا يقول به منصف ، ولكن مرده كان الى فهم الفقهاء ، والى اختلاف البيئات ، والى تفرق الصحابة في الامصار فكان كل منهم يفتي بما رآه عن النبي أو سمعه ^(٢) ، والى تأخر تدوين الحديث . ولكن هذا الخلاف كان فيه بعض الخير ، ان لم يكن فيه الكثير منه . فقد كان تمهيداً لمدارس الرأي التي ظهرت بعد ذلك ، والتي كان الجدل بينها مشهداً من مشاهد الحركة الفكرية في الاسلام

(١) تهذيب الاسماء واللغات ج ١ مادة عائشة (٢) الاحكام في أصول الاحكام لابن حزم ج ٢

المآصر

في بلاد الروم والاسلام

— ٢ —

ليخائيل عواد

(ج) المآصر في كتب التاريخ

يُعدُّ أسلم بن سهل الرزاز الواسطي المعروف بـ « بحشل » (المتوفى سنة ٢٨٨ هـ) من أقدم المؤرخين الذين نوَّهوا بأخبار بعض المآصر النهرية ، فقد حدثنا عن المآصر الذي بصريفين ^(١) واسط ، وهو المشهور في التاريخ باسم « المآصر الأسفل » وقد اتخذت فيه السلاسل بدل القلوس ، وكان الأمير المعروف بـ « مسروق » أشهر من أشرف على أعمال هذا المآصر . واليك جملة ما ذكره بحشل بشأنه . قال : « حدثنا أسلم ، قال : حدثنا عمرو ابن صالح ، قال : حدثنا هشيم عن مجالد عن الشعبي ، قال : بعث زياد مسروقاً على السلسلة حدثنا أسلم ، قال : حدثنا علي بن الحسن ، قال : حدثنا حفص بن غياث عن الأعمش عن أبي وائل ، قال : أقمت مع مسروق بسلسلة واسط سنتين حدثنا أسلم ، قال : حدثنا وهب بن بقية ، قال : حدثنا حماد بن أسامة عن الأعمش عن أبي وائل . قال : كنت مع مسروق بسلسلة واسط ، فررت سفن فيها هدايا الى معاوية حدثنا أسلم ، قال : حدثنا سعيد بن يحيى بن الأزهر ، قال : حدثنا حفص عن اسماعيل ابن أبي خالد عن أبي اسحاق ، قال : كان مسروق لا يفتش أحداً ، ويقول لمن مرَّ به : ان كان لنا معك شيء فأعطيناه حدثنا أسلم ، قال : حدثنا زكريا بن يحيى ، قال : حدثنا عباد بن عباد عن عاصم ، قال : قلت للشعبي : كيف أفلت مسروق من عمله على السلسلة ؟ قال : أما رأيت الثوب يُدفع الى القصَّار فيغسله فيجيد غسله . هكذا أفلت مسروق من عمله حدثنا أسلم ، قال : حدثنا الحسين بن منصور ، قال : حدثنا عاصم بن علي ، قال : حدثنا

(١) أنظرهما في معجم البلدان (٣ : ٣٨٦ ، طبعة وستنفلد)

شعبة عن ابن (لعله : أبي) اسحاق عن أبي وائل ، قال : كنت مع مسروق بالسلسلة ،
فأرأيت أميراً قط كان أعفّ منه ما كان يصيب ماء دجلة

حدثنا أسلم ، قال : حدثنا اسحاق بن داود ، قال : حدثنا الحسين بن الربيع ، قال :

حدثنا صفيان بن عيينة عن اسماعيل بن أبي خالد ، قال : بعث زياد مسروقاً على السلسلة ، فجاء

بعشرين ألفاً . فقال : ما جئت به ؟ قال : جئتُ بعشرين ألفاً . قال : هي لك . فلم يقبلها

حدثنا أسلم ، قال : حدثنا زكريا بن يحيى ، قال : حدثنا شريك عن أبي اسحاق

والأعمش أراه عن ابراهيم ، قال : أقام مسروق بالسلسلة سنتين

حدثنا أسلم ، قال : حدثنا تميم بن المنتصر ، قال : حدثنا يزيد بن هارون ، قال : حدثنا

حميد الطويل عن عبد الله بن حنين وكان شريك مسروق على السلسلة

حدثنا أسلم ، قال : حدثنا محمد بن اسماعيل بن سالم ، قال : حدثنا يحيى بن أبي بكر ، قال :

حدثنا شعبة ، قال : حدثني عبد الملك بن ميسرة ، قال : سمعت زياداً وكان داهية وكان

عشاراً ، وكان العشارون يومئذٍ القراء مسروق وزياد بن حدير ^(١) » اهـ

وذكر أبو بكر محمد بن يحيى الصولي (المتوفى سنة ٣٣٥ هـ) ، في حوادث سنة ٣٣٣ هـ

أنه « عقدت الشرقية ^(٢) وما فيها من الأعمال على أحمد بن جعفر المعروف بابن الشرطيّ

بثمانية آلاف سوى الاستثناءات فانها خمسة آلاف درهم . وضمت دجلة والمآصر الأعلى

بخمسة دینار ، وعقد القيار بألفي درهم ، فصار الجميع نيفاً وثلاثين ألف درهم في الشهر ^(٣)

وعلى ذكر المآصر الأعلى ، حكى مسكويه (المتوفى سنة ٤٢١ هـ) في حوادث سنة

٣٦٠ هـ ، عند كلامه على ارتفاع ابن بقیة ، قال : « كان هذا الرجل (ابن بقیة) من القرية

المعروفة بأوانا ونشأ في أيام الفتنة وغلبه أهل الرساق على طريق دجلة العليا . . .

وكان جرى رسمه بتقليد المآصر ، واتفق له أن اتصل بصاحب مطبخ معز الدولة المعروف

بممله وكان ضامناً لتكرير وما يجري معها من المآصر العليا وأبواب المال ، فلما خدم ممله

توجه معه وخفّ على قلبه ، فتدرّج من حالٍ الى حالٍ حتى استعمله على هذه الأعمال كلها

وفوضها اليه ^(٤) . . . »

(١) تاريخ واسط (المخطوط ص ٦ ب — ١٧)

(٢) هي على ما في معجم البلدان (٣: ٢٧٩) : « محلة بالجانب الغربي من بغداد . . . قيل لها الشرقية

لأنها في شرقي مدينة المنصور ، لالأنها في الجانب الشرقي »

(٣) أخبار الرازي بالله والمتي لله ، وهو الجزء الثاني من كتاب الاوراق (ص ٢٧٦ ، طبعة هيورث

دن في القاهرة (٤) تجارب الامم (٦ : ٢٨٥ ، طبعة أمديروز في القاهرة)

والظاهر من هذا ، ان المآصر العليا هي التي كانت مبثوثة ما بين بغداد وتكريت — وربما تعدت البلدة الاخيرة — تقطع دجلة في عدة مواطن ، لكن أشهرها في التاريخ هو المآصر الأعلى في بغداد . وقد ذكره ابو الفرج ابن الجوزي غير مرة . قال في أحداث سنة ٤٢٥ هـ « فن الحوادث فيها عود العيارين الى الانتشار ومواصلة الكبسات بالليل والنهار ، ومضى البرجي^(١) الى العامل على المآصر الأعلى بقطيعة الرقيق^(٢) ، فقرر معه أن يعطيه في كل شهر عشرة دنانير من الارتفاع ويطلقوا له سميرتين كبيرتين بغير اعتراض ، وأخذ عهده على مراعاة الموضع^(٣) . . . »

وها هو ذا يعود الى ذكر هذا المآصر الشهير عند كلامه على الحسن بن أبي جعفر الملقب بـ « عميد الجيوش » الذي خدم صمصام الدولة وبهاثها ، « وولاه بهاء الدولة تدبير العراق فقدم سنة اثنتين وتسعين وثلثمائة والفتن كثيرة ، والدعار قد انتشروا ، فقتل وأغرق خلقاً كثيراً » ، وقد جاء في عدله وهيبته حكايات منها انه « أعطى بعض غلمانة صينية فضة فيها دنانير وقال : خذها على رأسك ، وسر من النجمي^(٤) الى المآصر الأعلى ، فان اعترضك معترض فاعطه إياه واعرف الموضع الذي أخذت منك فيه . فجاءه وقد انتصف الليل ، وقال : قد مشيت البلد جميعه ، فلم يلقي أحد^(٥) »

ونعود الى قول مسكويه في المآصر . فقد نبّه عليها أيضاً عند كلامه على حوادث سنة ٣٢٥ هـ ، بقوله : « وانما امتعضت^(٦) (البريدي يتكلم) لكم من ظلم ابن رائق ومحمد بن زداد خليفته لكم ، وتحملت في مالي أربعة آلاف دينار في كل شهر بازاء ما كان يؤخذ من الشرطة والمآصر والشوك تخفيفاً عنكم ، وقد أزلت جميعها ، وهذا خطي برفعها عنكم...^(٧) » وابن رائق هذا هو الذي وضع المآصر ببغداد فقد زاد صاحب التكملة^(٨) على قول مسكويه

(١) البرجي ، انظر « الذيل » رقم ١ (٢) الرقيق ، انظر « الذيل » رقم ٢ (٣) المنتظم (٨ : ٧٧)

(٤) النجمي ، انظر « الذيل » رقم ٣

(٥) المنتظم (٧ : ٢٥٢ — ٢٥٣) ، وقد نقل هذه الرواية ابن تغري بردي في النجوم الزاهرة

(٦) ٢٢٨ : ٤ ، طبع دار الكتب المصرية (٦) تجارب الامم (٥ : ٣٦٤)

(٧) هو محمد بن عبد الله الحمداني المتوفى سنة ٥٢١ هـ له تكملة لتاريخ الطبري . انظر : تجارب

الامم (٥ : ٥٠) ، حاشية ٢ ، والمنتظم (١٠ : ٨) ، حوادث سنة ٥٢١ هـ ، والاعلان بالتوبيخ لمن

ذم التاريخ للسخاوي (ص ١٤٤ ، طبع دمشق) (٨) قال مسكويه (تجارب الامم ٥ : ٣٨٣) :

« . . . وسار موسى فياذه الى حصن مهدي فلكها ، وكانت من أعمال البصرة ، وصارت الاسافل وراءه ،

ودخل الامير سوق الاهواز فنزل دار أبي عبد الله البريدي وانتظمت له الامور ، وحصل البريدي بالبصرة

واستقامت لهم ، واستقر بحكم بواسط يتنازع الملك ببغداد ، وجمع ابن رائق أطرافه وأقام بها »

بالكلام التالي : « وهو الذي وضع المآصر (المآصر) ببغداد ، وما كانت سمعت بالضرائب ^(١) من قبله ^(٢) »

وفعل ابن رائق هذا في أمر المآصر يقرب من فعل « ابن الهاروني » ، فقد كان كلاهما يتصرف في أمر استيفاء الدراهم من المآصر والمكوس ، ويثقل كاهل الناس بما لا طاقة لهم به . فقد حكى ابن الجوزي في أحداث سنة ٥٣٠ هـ ان « هذا الملعون ابن الهاروني قصده إساءة السمعة وهلاك المسلمين وهو السبب في جميع ما جرى ، فقبض على ابن الهاروني يوم الخميس ثامن عشر (شهر) ربيع الأول ، وجاء رسول زنكي فلقبي الخليفة (الراشد بالله) وشكا مما جرى من ابن الهاروني وتأثيراته في المكوس والمواصر ، وقال : الخادم يسأل أن يسلم اليه ليمتدح الي الله بدمه ، فقال له ندبر في ذلك . ثم تقدم في بكرة الاحد حادي عشرين الشهر الى ابي الكرم الوالي بقتله ، فقتل في الرحبة وصلب على خشبة قصيرة ، ومثل به العوام ، فلما جن الليل أخذه أهله وعفوا أثره ، وظهرت له من الأموال والآثاث وأواني الذهب والفضة أمر عظيم ، ووصل الى الخليفة من ماله مائتا الف ، وكانت له ودائع عند القضاة والتجار ^(٣) »

وهكذا يجد المرء في حوادث السنين أنباء في وضع المكوس والمآصر واقرارها واستيفاء الدراهم منها ، أو إسقاطها وإزالتها من الوجود

فقد كان من جملة حوادث سنة ٥١٥ هـ أن أعيدت المكوس والمواصر ، وألزم الباعة أن يرفعوا الى السلطان ثلثي ما يأخذونه من الدلالة في كل ما يباع . . . » ^(٤)

واستمرت الحال على هذا المنوال حتى دخلت سنة ٥٣٣ هـ ، ففي شهر ربيع الاول « أزيلت المواصر والمكوس ، ونقشت الألواح بذلك ، واستوزر السلطان (مسعود) رجلاً من رؤساء الري يقال له محمد الخازن ، فأظهر العدل ورفع المكوس والضرائب ، وكان حسن السيرة ، فدخل عليه رجلان يقال لأحدهما ابن عمارة ، والآخر ابن أبي قيراط يطلبان ضمان المكوس التي أزيلت بمائة الف دينار ، فرفع أمرهما الى السلطان ، ففشسرا في البلد مسودّي الوجوه وحبساً » ^(٥)

(١) الضرائب ، انظر « الذيل رقم ٤ (٢) تجارب الامم (٥ : ٣٨٣ ، حاشية ١)

(٣) المنتظم (١٠ : ٥٦) (٤) المنتظم (٩ : ٢٢٧ — ٢٢٨)

(٥) المنتظم (١٠ : ٧٨ — ٧٩) ، الكامل لابن الاثير (١١ : ٤٧) ، أوربة = (١١ : ٢٩ ، بولاق)

ونظير هذا الحادث ما جرى في سنة ٥٤١ هـ. فقد روى أبو الفرج ابن الجوزي أنه « طيف بالألواح التي نقش عليها ترك المكس في الأسواق ، وضربت بين يديها الدبادب والبوقات »^(١)

وقد أفاض في ذكر هذا الحادث سبطه ، بقوله « وفيها (سنة ٥٤١ هـ) بطلت المكوس والضرائب ببغداد ، وسببه ان ابن العبادي جلس بجامع السلطان ، وحضر السلطان عنده ، فوعظه وذكر ما يجري على المساكين من الظلم ، ثم قال : يا سلطان انت تهب في ليلة لمطرب مثل هذا المأخوذ من الناس ، فاجعلني ذاك المطرب واجعل ذلك شكراً لما أنعم الله عليك ، فأشار بيده قد فعلت ، وارتفعت الضجة بالدعاء ، ونودي في البلد بالاسقاط ، وكتب به ألواح ونصبها في المحال والشوارع ، فلم يزل الأمر على ذلك حتى قلع الألواح أبو العباس أحمد بن الناصر لدين الله ، وقال : ما لنا حاجة ان يكون عندنا آثار الأعاجم »^(٢)

ويظهر ان اسقاطها وازالتها لم يكن طويلاً الأمد ، فقد عادت هذه الضرائب والمآصر الى ما كانت عليه ، وتحكم المكاسون والمصريون في رقاب الناس ، فارتفعت الشكاوى من كل جانب ، واستغاث الناس بالسلطان ، فأمر عماله باسقاطها ، كما جرى في سنة ٥٤٥ هـ حيث كان «مرض ابن البلكري وهو خاص السلطان مسعود ، فلما عوفي أسقط المكوس . وكان المكاس ببغداد يلقب مختص الحضرة ، وكان يبالغ في أذى الناس وأخذ أموالهم ، ويقول أنا قد فرشت حصيراً في جهنم »^(٣)

وورد ذكر المآصر في العمل الذي وجده هلال بن المحسن الصابئ (المتوفى سنة ٤٤٨ هـ) المشتمل على ذكر أحمد بن محمد الطائي ، وما ضمنه من الأعمال وشرطه على نفسه من حمل مال الضمان مياومة الى بيت المال . وقد شرح فيه وجه خرج المياومة ، فذكر هلال « المترقة برسم الشرطة بمدينة السلام والخلفاء عليهم ، وأصحاب الأرباع والمصالح والأعوان والسجانيين وأصحاب الطوف والمصريين ومن في جملتهم من الفرسان الذين ميزوا وألحقوا بطبقة (التموسطين) من المشايخ والمترفين ومن هذه سبيله من الرجالة الموكلين بأبواب المدينة ، وأيام شهرهم مائة وعشرون يوماً من جملة ستة آلاف دينار في المشاهرة = خمسين ديناراً »^(٤)

(١) المنتظم (١٠ : ١٢٠)

(٢) مرآة الزمان (٨ : ١١٣ — ١١٤) ، وقد نقلها ابن كثير في البدء والتاريخ (١٢ : ٢٢١)

(٣) المنتظم (١٠ : ١٤٣) ومرآة الزمان (٨ : ١٢٤)

(٤) تحفة الامراء (ص ١٥) ، وانظر ص ٥٧ من مقدمة الناشر ، مادة (أصر . المآصر)

﴿ الذيل ﴾

(١) قال ابن الجوزي (المنتظم ٨ : ٦٦ ، حوادث سنة ٤٢٣ هـ) : « وقوي أمر العيارين وكبس رئيسهم البرجمي خاناً فأخذ ما فيه ، فقتل فقتل جماعة ، وكان يأخذ كل مصعد ومنحدر ، وكبس داراً بسوق يحيى وأخذ ما فيها واحرقها ، هذا والعسكر ببغداد »

ثم قال (٨ : ٧٩ ، سنة ٤٢٥ هـ) : « وفي ليلة الأحد سادس عشر (شهر) رمضان ، أغرق البرجمي اللص بفم الدجيل ، أخذه معتمد الدولة ففرقه بعد أن بذل مالا كثيراً على أن يترك فلم يقبل منه ، ثم دخل أخو البرجمي الى بغداد فأخذ أختاً له من سوق يحيى وخرج فتبع وقتل »

ولتتبع أخباره ، أنظر المنتظم (٨ : ٤٤ ، ٤٧ ، ٥٠ ، ٧٢ وما يليها)

ونسج البرجمي هذا في استيفاء المبالغ من الضرائب والمآصر ونحوها ، على منوال سلفه العيار المعروف بـ « عزيز » الذي قوي أمره واستفحل في سنة ٣٨٤ هـ ، وكان من أهل باب البصرة من الجانب الغربي من بغداد « فالتحق به كثير من الدُّعَّار وطرح النار في الحال ، وطلب أصحاب الشرط ، ثم صالح أهل السكرخ ، وقصد سوق التمارين وطالب بضرائب الأمتعة ، وجبى ارتفاع الأسواق الباقية ، وكاشف السلطان وأصحابه ونادى فيهم ، وكان ينزل الى السفن فيطالب بالضرائب وأصحاب السلطان يرونه من الجانب الآخر » : (المنتظم ٨ : ١٧٤)

...

(٢) في المطبوع « دار الدقيق » وهو تحريف ظاهر ، وقد وردت بهذا التحريف غير مرة في كتاب المنتظم ، ولم ينبه اليها الناشر وقد طلبت الى الصديق العزيز الدكتور مصطفى جواد ، العالم بخطوط بغداد ، ان يعين موقع كل من قطعة الرقيق هذه والنجمي — الآتي ذكرها — بالنسبة الى بغداد الحالية ، لنستشف من خلالها محل المآصر الأعلى ، فتفضل بالمعلومات التالية :

« قطعة الرقيق ، وقطعة أم جعفر ، وزبيدية بغداد : أسماء ثلاثة لقطعة واحدة ، والظاهر من أخبار خطط بغداد أنها كانت تنتهي من أعلاها بالموضع المعروف اليوم بالبحية

(البوحيّة) من شرقيّ السكاظمية الشماليّ، وكان فيها القافلائيون — وهم كما في أنساب السمعانيّ الذين يشترون السفن السكبارة المنحدرة من الموصل والمصعدة من البصرة ويكسرونها ويبيعون خشبها وقيرها وقفلها أي حديدتها — ، فالشطّ الغربيّ المنسوب فيه الجمر في عهدنا بين السكاظمية والأعظمية كانت أرضه من قطيعة الرقيق . وقد قالوا قطيعة الرقيق كما قالوا (دار الرقيق) و (سوق الرقيق) « اه

قلتُ : انظر معجم البلدان (٢ : ٥١٩ مادة دار الرقيق) و (٤ : ١٤١ قطيعة أم جعفر) و (٤ : ١٤١ — ١٤٢ قطيعة الرقيق) و (٢ : ٩١٧ الزبيدية)

...

(٣) قال الدكتور مصطفى جواد : « النجمي الذي كان بالجانب الغربي من بغداد كان مقابلاً لدار الخلافة الحديثة المعتضدية التي كانت على دجلة بين مشرعة المصبغة الحالية الى ما وراء جسر بغداد الاسفل (جسر الملك فيصل) . قال ابو المظفر يوسف بن قزاعلي المعروف بسبط ابن الجوزي في حوادث سنة ٤٥٠ (مرآة الزمان ، مخطوط رقم ١٥٠٦ ، عربي ، ورقة ٤٧ من نسخة دار الكتب الوطنية بباريس) نقلاً عن تاريخ محمد بن هلال الصابئ ما نصه : « وبعث رئيس الرؤساء (أبو القاسم علي بن الحسن بن المسامة) الى أبي الأغر ديبس يستحثه في القدوم الى بغداد خوفاً من البساسيري ، فقدم يوم الاثنين ثاني ذي القعدة في مائة فارس ، فنزل النجمي مقابل دار الخليفة ، واستأذن في ضرب الطبل على باب خيمته في أوقات الصلوات ، فأذن له في بعضها »

وهذا دليل صريح على كون النجمي مقابلاً لدار الخلافة (يفصل بينهما دجلة) . ولنا دليل ضمني على انه كان مقابلاً لقصر التاج من دار الخلافة . وكان هذا في الموضع الذي بنيت فيه المحكمة الشرعية وما جاورها من العمارات (قبل بعض السنوات) فقد ذكر سبط ابن الجوزي أيضاً في حوادث سنة ٤٤٩ (مرآة الزمان ، المخطوط ، ورقة ٢٢) ان أبا الغنائم سعد بن أبي الفرج محمد بن فسانجس داعية المستنصر الفاطمي المستولي على واسط الخاطب له فيها ، كان أصحاب طغرل بك قد أسروه في هذه السنة وطافوا به على أقبح حال وعليه قميص أحمر وطرطور أحمر وقلادة ودع ، فلما بلغ المطوف به النجمي حُطَّ من فوق الجمل ونصبت له خشبة فصلب عليها وشدّت رجلاه الى رأسه ، ثم قطع رأسه ورميت جثته للسكلاب فأكلتها «

وقد ترجمه جمال الدين ابن الجوزي في وفیات سنة ٤٤٩ (المنتظم ٨ : ١٨٩) ، فذكر انه صلب بازاء التاج . وبذلك نحكم بأن التاج كان مقابلاً للنجمي « اه

قلنا : وعليه يكون المآصر الأعلى في أعلى الجانب الغربي من بغداد ، والنجمي في أسفل هذا الجانب ، فغلام عميد الجيوش طاف المدينة من أعلاها الى أسفلها ، وهو ما يوافق قول ابن كثير في هذا الخبر (البداية والنهاية ١١ : ٣٤٤) : وأمر بعض غلمانه أن يحمل صينية فيها دراهم مكشوفة من أول بغداد الى آخرها . . . »

وقد نبه مسكويه الى محل النجمي يومذاك فقال في أحداث سنة ٣٦٩ هـ (تجارب الامم ٦ : ٣٩٦) : « . . . وخرج الطائع لله في تلقية (لتلقي عضد الدولة) مع جماعة من الجيش والمقيمين وسائر الخواص والعوام ، ودخل يوم الأحد لليلة خلت من ذي الحجة ، واجتاز في الجانب الغربي على تعبئة من الجيش ، وبعد أن ضربت له القباب متصلة منتظمة بين عسكريه من باب حرب وبين الموضع الذي ينزله من آخر البلد ، وهو البستان المعروف بالنجمي ، وعبر في يوم الاثنين له الى داره فاستقر فيها »

أنظر النجمي في صلة تاريخ الطبري (ص ١٦٧ ، ليدن) ، والاوراق — أخبار الرازي والمتقي — (ص ١٤٤) ، والمنتظم (٧ : ٢٢٣ و ٨ : ٢٩٤) ومعجم البلدان (١ : ٤٦٠) ، مادة بادوريا) ، والكامل لابن الاثير (٨ : ١٣٧ حوادث سنة ٣١٦ هـ)

..

(٤) ذكر البشاري المقدسي (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص ١٣٣ — ١٣٤ طبعة دي غويه في ليدن) في عرض كلامه على «الضرائب» في إقليم العراق بأنها كانت «ثقيلة كثيرة محدثة في النهر والبر . وفي البصرة تفتش صعب وشوكات منكرة وكذلك بالبطائح تقوم الأمتعة وتفتش . وأما القرامطة فلمهم ديوان على باب البصرة ، وللديلم ديوان آخر حتى انه يؤخذ على الغنمة الواحدة أربعة دراهم ، ولا يفتح إلا ساعة من النهار ، وإذا رجع الحاج مكسوا أحمال الأدم والجمال الأعراية ، وكذلك بالكوفة وبغداد ، ويؤخذ من الحاج للمحمل شئون ، ومن الكنيسة أو حمل البرّ مائة ، ومن العمارية خمسون ومائة بالبصرة والكوفة »

وللتوسع ، راجع : المنتظم (٦ : ٢٩٦ ، حوادث سنة ٣٢٧ هـ) ، والبداية والنهاية لابن كثير (١١ : ١٨٩) ، والنجوم الزاهرة (٣ : ٢٦٤)

القبلة الاولى

ليوسف الخال

ضممتُ يا لطف من ضممتُ وقبلة كان ما غنمتُ
بريثة البوح يعتريها سكون حب غفا وصمتُ
يلفُّها الطهر قرمزيًا هام على ثغرها فهمتُ
أستوضح اللون باشتياقٍ يهَمُّ بي مثما همتُ
فأطبق السر مستباحًا يمج في كل ما علمتُ
تجبني جهد ما تمننتُ وتحنق الوهم إن وهمتُ
تجبني جامع التمني انثر في الحب ما لممتُ
وأنشق الفوح من شذاها منزّه النفح أين رمتُ
يا قبلة كلها نعيم حسبي من العمر ان نعمتُ
ولي بها غاية تُرجى صليت من أجلها وصمتُ

الدين والفلسفة

التوفيق بينهما في المشرق

لمحمد يوسف موسى

بعد أن تبيننا فيما مضى نشره معنى الدين والفلسفة ونشأتها والعلاقة بينهما في المشرق والمغرب التي كانت إلى الخصومة ، تنتقل إلى ما كان واجباً على الفلاسفة من محاولات التوفيق بينهما

﴿ تمهيد ﴾ ربما كانت محاولة التوفيق بين الدين والفلسفة تبدو واجبةً وأمرًا طبيعيًا يحس به الفيلسوف المتدين لأكثر من عامل واحد ، أولاً : ليحقق الانسجام بين ما ورث من عقيدة تعمر قلبه ويراها فوق الشك وإن عزَّ عليه أحياناً أن يفهم بعض جوانبها ، وبين النتيجة التي أدَّى إليها النظر العقلي الصحيح ، وثانياً : ليكون بمنجاة من غضب بعض رجال الدين الذين يرون كل تفكير عقلي فلسفي ضربة موجهة إلى الدين الذي مصدره الوحي لا العقل ، وليكون أيضاً بمأمن من اضطهاد الشعب لمن يرى من المفكرين فضلاً لنفسه في التفكير ، ويزعم أنه قادر على فهم ما يراه الكثيرون أسراراً وأموراً فوق طاقة الإنسان

وإذا كانت محاولة التوفيق مما يهم كل مشغول بالفلسفة كما قلنا ، فهي أمر لا بد منه لفلاسفة المسلمين ، لكل ما تقدم ، ولبعد شقة الخلاف بين الإسلام وفلسفة أرسطو في كثير من المسائل ، وليستطيعوا الانتاج في هدوء

من أجل ذلك كله نجد أمر العلاقة بين الدين والفلسفة له أصله الأفريقي الذي لا ينكر ، ونجد كل المدارس الفلسفية تقريباً في العصر القديم تحتفظ بمكان صغير أو كبير للمسائل الدينية وترى للدين جدواه الخلقية والاجتماعية ، كما نجد هذا الاتجاه لتأسيس علاقة طيبة بين الدين والفلسفة يزيد عند « فيلون — Philon » اليهودي وأمثاله في مدرسة الاسكندرية وعند بعض آباء الكنيسة في المسيحية^(١)

هذا فيما يتصل بالمفكرين غير المسلمين. أما بالنسبة إلى المسلمين، فإن الذي يفهم الإسلام وروحه التي تدعو للاخذ بالوسط في كل الأمور وتوجب التوفيق بين المتنافرين، والذي درس تاريخ الإسلام وبخاصة الناحية العلمية — نقول إن الذي يفهم روح الإسلام ودرس تاريخ العلوم الإسلامية وتطوراتها، يرى أن روح التوفيق بصفة عامة كانت طابعاً للمسلمين في كل ضروب التفكير النظرية تقريباً، والتاريخ شاهد صدق على ما نقول

ففي علم الكلام نجد مذهب الأشعري — الذي عُرف بمذهب أصل السنة والجماعة — مذهباً وسطاً أريد به التوفيق بين مذهب السلف القائم على التمسك بالنص من غير تعريض لتأويله عقلياً، ومذهب المعتزلة الذي أعطى للعقل الحرية في فهم نصوص القرآن وتأويلها بما يتفق مع العقل، كما نجد المعتزلة أنفسهم يرون أن الوحي والعقل من الله فلا يمكن أن يتناقضا، وأن الأنبياء لم يكشفوا شيئاً تعجز العقل معرفته، ولهذا يجب أن يكون ما يجيء به الوحي معقولاً والآخر واجب تأويله. وفي التشريع نجد مذهب مالك يعتمد على الحديث والمذهب الحنفي يعتمد على الرأي ونظر العقل واجتهاده، فجاء مذهب الشافعي وسطاً موفقاً بين هذين الطرفين. وفي الفلسفة نجد محاولة الفارابي التوفيق بين افلاطون وأرسطو التي خصص لها كتاباً من مؤلفاته، كما نجد أن أهم مميزات فلاسفة العرب المشائين بصفة عامة نزعة التوفيق والتوفيق بين كثير من المذاهب الفلسفية السابقة لهم

فاذا كانت نزعة التوفيق من النزعات التي سادت مفكري الإسلام في جميع فروع التفكير بصفة عامة، فكم بالأولى يعمل الفلاسفة على التوفيق بين الدين الذي يعتقدون صحته ولا يرتابون في شيء منه والفلسفة المبنية على النظر الصحيح والمنطق السليم!

من أجل هذا نجد كل فلاسفة الإسلام — منهم مثل غيرهم من المتكلمين والمفكرين — حاولوا هذا التوفيق سواء منهم من تقدم به الزمن ومن تأخر، مع اختلاف في الطرق التي اصطنعوها والجهود التي خصصوها لبلوغ الغاية المرجاة، ومع تفاوت في مبلغ ما قدّر لكل منهم من نجاح. ويطول بنا الكلام إذا تحدثنا في شيء من البسط على كل تلك المحاولات التي بذلت في هذه الناحية الفلاسفة وغير الفلاسفة من المفكرين في الإسلام

لذلك نكتفي بإيجاز القول بما كان من أعلام الفلاسفة وحدهم؟ أعني عن السكندر والفارابي ومسكويه وابن سينا في المشرق، وابن باجه وابن طفيل وابن رشد في المغرب

في المشرق

١ — عاش الكندي في فترة من حياته في بيئة التفكير الحر والتسامح الكبير ، هذه البيئة التي خلقها المأمون (١٩٨ — ٢١٨ هـ) وشجعها حتى أنه كان نفسه شيعياً ووزيره يحيى بن أكنم سنياً ووزيره الآخر أحمد بن أبي دؤاد معتزلياً ، وحتى أن الرجل كان لا يجد حرجاً في أن يعتقد ما يرى من مذهب ، فكان يجتمع في البيت الواحد عدة إخوة لكل منهم مذهبه ورأيه ^(١) لكنه عاش بعد هذه الفترة في العصر الذي بدأه المتوكل على الله (٢٣٢ — ٢٤٧ هـ) والذي عاد فيه سلطان أهل السنة

لا جرم إذاً ، أننا نراه يشعر — ككل مفكر حر — بالخوف والقلق على نفسه ، فيحاول التوفيق بين الدين الذي لا يشك في أنه حق والفلسفة التي يقرها عقله . ولهذا نجد ابن النديم يذكر له بين مؤلفاته رسالة في تثبيت الرسل وأخرى في نقض مسائل الملحدين ^(٢) كما نرى ظهور الدين البيهقي يذكر عنه أنه « قد جمع في بعض تصانيفه بين أصول الشرع وأصول المعقولات » ^(٣) كما يذكر في ترجمة أبي القاسم الحسين بن الفضل الراغب أنه كان من حكماء الاسلام ، وهو الذي جمع بين الشريعة والحكمة في تصانيفه ، وإن من كلامه : « بين العقل والشرع تظاهر ويفتقر أحدهما الى الآخر » ^(٤) وهذا لم يكن الفارابي هو الذي افتتح هذا العمل ، أي التوفيق بين الدين والفلسفة ، كما قرر أحد العلماء الباحثين ^(٥)

٢ — على أن الفارابي عمل لهذه الغاية بجدٍّ ، غير منبعث ، على ما نعتقد ، باتقاء تعصب الجهال ورجال الدين ، إذ قضى حياته في جوٍّ حماء من هذا ونحوه . لقد عاش المعلم الثاني عيشة هادئة وادعة حيناً في بغداد موطن تعلمه ودراسته ، ثم انتقل الى حلب وأميرها سيف الدولة الحمداني — المعروف كما قدمنا بحب العلم وتشجيع أهله — ليعيش في كنفه عيشة الزاهد المتصوف الذي لا تغرّه رياسته ولا تقفنه الدنيا حتى مات بدمشق وقد رحل اليها بصحبة أميره سنة ٣٣٩ هـ . والذي يرجع الى ترجمته ، كما ذكرها ابن خلكان ^(٦)

(١) جورجى زيدان في كتابه « تاريخ آداب اللغة العربية » مطبعة الهلال بالقاهرة سنة ١٩١٢ ج ٢ ص ١٩ (٢) الفهرست طبع مصر ص ٣٦٢ (٣) تنمة صوان الحكمة طبع الهند سنة ١٩٢٥ ص ٢٥ (٤) نفسه ص ١٠٤ — ١٠٦ ، وقد أثبتنا بهذا استطراداً نافعا في هذا المقام (٥) ابراهيم مذكور في كتابه « مكانة الفارابي » بالفرنسية ص ٤١ (٦) ج ٢ ص ١١٢ — ١١٤

وابن أبي أصيبعة^(١) وصاعد الاندلسي^(٢) والقفطي^(٣) ، يجد مصداق هذا فالفارابي لم يضطهد بسبب الفلسفة ، اذاً فقد كانت محاولته التوفيق لما رمخ في ذهنه من ان الحقيقة واحدة ، وأنه قد وصل اليها أفلاطون وأرسطو وجاء بها الوحي ، فيجب لذلك التوفيق بين ما يظن تعارضه من هذا كله

والخطة التي اتخذها الفارابي تتلخص في أمرين تأثره فيهما من أتى بعده : تفسيره النبوة بجعلها أمراً عقلياً ، وتأويل بعض العقائد الدينية التي يسميها المتكلمون بالسمعيات تأويلاً مماهه العقل والنظر ، وبهذا وذاك يكون قد اعترف بالوحي ولم يبلغ العقل ، وجعل لكل منهما مكاناً بجانب الآخر . انه يرى ان النبوة ليست أمراً خارقاً للعادة ، إذ ليس النبي إلا إنساناً بلغت قوته التخيلة غاية الكمال ، وتسنى له الاتصال بالعقل الفعال ، فيعرف عنه في اليقظة الأمور الحاضرة والمستقبلية وغيرها مما يجعل له صفة النبوة^(٤) ، ويكون الفرق بينه وبين الفيلسوف أن النبي يصل الى هذه الحقائق كما وصفنا على حين يصل الفيلسوف اليها بالنظر العقلي ، ولين هذا — في رأي الفارابي — بالفرق الكبير

ولم يخف على الفارابي ما في تفسيره للنبوة وبعض السمعيات (مثل الملائكة والروح والقلم والحساب) من عسر في الفهم يجعله فوق طاقة بعض الناس ، فقسم الناس الى طبقات ثلاث : العامة ورجال الدين والفلاسفة ، ورأى انه يجب عرض الأشياء على كل طائفة حسب مقدرتها على تصورهما وفهمهما ، إما بذكر حقائقهما ، وإما بتقريبها لهم بذكر محاكياتها وأمثالها^(٥)

بهذا التفسير العقلي لنظرية النبوة وبعض العقائد السمعية ، وبتقسيم الناس ازاء هذه الأمور الى طوائف ثلاث ، رسم الفارابي طريق التوفيق بين الدين والفلسفة للذين أتوا بعده وتأثروا به في هذه الناحية كما يظهر ذلك واضحاً من صنيع مسكويه وابن مينا

٣ — أما أبو علي احمد بن يعقوب مسكويه فقد عاش في كنف دولة بني بويه ،

(١) طبقات الاطباء ج ٢ ص ١٣٤

(٢) طبقات الامم ص ٦١ — ٦٣

(٣) أخبار الحكماء ص ١٨٢ — ١٨٤

(٤) آراء أهل المدينة الفاضلة، نشر « Dieterici » بليدن ص ٥٢ ، والسياسات المدنية طبع

حيدرآباد سنة ١٣٤٦ هـ ص ٤٩ — ٥٠

(٥) كتاب الجمع بين الحكيمين ، طبع ليدن ، ص ٢٦ — ٢٧ والسياسات المدنية ص ٥٥ — ٥٦

وظلاً أثيراً لدى أمرائها حتى توفي سنة ٤٢١ هـ كما ذكر القفطي ، او بعد هذا بعام كما يقول صاحب كشف الظنون وياقوت . وقد عني كالفارابي بمسألة التوفيق بين الدين والفلسفة ، أعني المسألة التي تعتبر معقد الطرافة والابتكار في الفلسفة الاسلامية ، وكانت وميلته لهذه الغاية تفسير النبوة تفسيراً عقلياً يضعف الفرق بين النبي والفيلسوف ويزيد الصلة بينهما ، وتبين الحاجة الماسة للنبوة ، وغير هذا وذاك مما وافق فيه رجال الدين والمتكلمين كخلود النفس وحدث العالم عن عدم^(١)

النبي ، عنده ، انسان يصل بتأثير العقل الفعال في قوته الحاسة وقوته التخيلية الى ما يصل اليه الفيلسوف من حقائق ، لا فرق بينهما الا ان هذا وصل اليها مرتقياً من أسفل ، أي من قوة الحس الى قوة التخيل الى قوة الفكر التي بها يدرك حقائق الأمور التي في العقل الفعال ، على حين النبي يتلقى نفس الحقائق منحة اليه من عل ، ولأن الحقائق التي يصلان اليها واحدة ، كان الفيلسوف أسرع من غيره لتصديق ما يأتي به النبي وقبوله^(٢)

والناس في رأيه — كما أشرنا من قبل — في حاجة ماسة لمعرفة الآراء الصحيحة والأصوال النافعة التي بها تدرك السعادة ، وان كان معرفة صحة ما دعوا اليه بالنظر الصحيح تكون من جهة الحكماء^(٣)

٤ — واذا تركنا مسكويه الى الشيخ الرئيس أبي علي بن سينا نجد أنه قد عني بالبحث في كثير من رسائله الصغيرة — فضلاً عن النجاة والاشارات — بتخصيص بضع صفحات من كل منها للغاية التي سعى لها الفارابي من قبل وهي الجمع بين الوحي والعقل ، ونجده قد تأثر به الى حد كبير فيما اتخذ لهذه الغاية من خطة وطريق ، أعني من تقريب الفلسفة من الدين ، وتفسير عقائده وشعائره تفسيراً يرضاه العقل والتفكير الصحيح . لهذا نرى الاكتفاء هنا بما ذكرناه عن الفارابي ففيه مقنع وغناء

ولكننا نرى ان نشير هنا الى ان ابن سينا عاش في بيئة كانت — كما ذكرنا من قبل — تشجع العلم والبحث الحر فلم يناله سوء بسبب اشتغاله بالفلسفة ، وما ناله من الاضطراب في حياته بعد وفاة أبيه كان سببه اشتغاله بالسياسة . وإذا فلم يعن بمسألة التوفيق تقيّة ومحافظة على الحياة الهادئة الرغدة ، بل ليوائم بين عقيدة القلب المقدسة ونظر العقل الصحيح

(١) الفوز الاصغر طبع بيروت سنة ١٣١٩ هـ ص ٣٢ ، ٤٩ (٢) نفسه ص ١٠٢ — ١٠٤

(٣) نفسه ص ٦٦

اختبار العبقرية

لطامل محمود حبيب

« ان سوء المعاملة والعوز يؤثران في أشد الاطفال ذكاء فيبدو غيبا »

لعمري كيف تباينت أنصباء الناس من الذكاء ؟ ولماذا غدا بعضهم شجاعاً والبعض خباناً وبدأت على بعضهم الرغبة في أن يصير قائداً واستقام الآخرون الى أن يكونوا تبعاً ، ونشأت فئة في الغطرسة والكبرياء . وركنت فئة أخرى الى الخنوع والضعف . وهكذا مما لا حصر له من الخصال المتشعبة ؟ ومن بعد ، كيف تمنح الطبيعة رجلاً منةً ضافية فتسمو به في ناحية خاصة من نواحي الحياة فيبدو نجماً متألقاً في سماء الدنيا ؟

عجز العلم — حتى قريب — عن أن يفك طلاسم هذه الاسئلة ، ولكن معامل الأبحاث النفسانية أخذت تحاول — حديثاً — نبش هذا الموضوع فانتهت الى ان العبقرية الفعالة هي نتيجة لأمرين متلازمين : الوراثة ، والبيئة التي أحاطت بالطفل في مطلع العمر . وحين وجد العلماء أنفسهم لا يستطيعون أن يقطعوا برأي جازم ، قالوا ان الذكاء وليد الوراثة فحسب . واذا كانت البيئة — في كثير من الاحايين — تؤثر في العبقرية الباكرة فذلك لأنها قد تدفع المرء الى غاية لا يستطيع أن يميز بين غنها وسمينها

ولقد أحلّ العلم الحديث البيئة المبكرة المحل الاول عند تحديد الخصائص الانسانية ، ونبه المجتمع الى أمر حيوي ذي بال : هو أن يعنى بالافراد ذوي الكفايات الممتازة عناية خاصة منذ ظهور أول سيماء عليهم

كيف — اذن — استطاع العلماء أن يكشفوا عن العبقریات ؟ وما هو مستوى الذكاء المفرط في رأيهم ؟ هذان سؤالان لا يدفعان بنا الى الاستغراق في التسلية فحسب بل الى جدال عنيف يتناول « اختبار الذكاء »

والذكاء الخارق يتميز بمقامات منها : الذاكرة الممتازة ، والسمو في الترابط العقلي والمنطقي

والقدرة على استدعاء المعلومات عند الحاجة . ومنذ سنوات قام الاختصاصيون بعمل اختبارات شملت فئات كثيرة من الناس فكشفت عن مستوى الذكاء النفسي فيهم

وفي سنة ١٩١٧ طبق الاختبار الاول « ألفا » على الجيش الأميركي ، وكان ينضم على أسئلة فيها خداع بسيط وأحاجي سهلة واختبارات للذاكرة . وبعد مئات الآلاف من هذه الاختبارات رتبهم العلماء في سمط ، واستنبطوا المستوى العادي للذكاء الذي اتخذ وحدة للقياس ، واعتبر « معدلاً للذكاء » ووضع له رقماً اختياريًا هو « ١٠٠ » فإذا قلّ ذكاء شخص عن المستوى العادي بمقدار ١٠ ٪ مثلاً قيل ان ذكاءه (م ٩٠) وإذا زاد عليه بمقدار ٢٠ ٪ قيل ان ذكاءه (م ١٢٠) وهكذا ...

وكانت اختبارات الذكاء مثار نقاش حاد طويل لا حاجة لنا فيه ، غير انه مما لا ريب فيه ان هذه الاختبارات هيأت معدلاً للذكاء لا ينفلت منه انسان مهما كانت مهنته . على ان مستوى الذكاء الذي تبينه الاختبارات بعد السابعة من العمر قلما يتغير بمرور الزمن ولقد قامت جامعة إيوا بالولايات المتحدة — منذ سنوات — بسلسلة من الأبحاث أثبتت ان مستوى الذكاء في كثير من الاطفال يرتفع غير قليل إن هم ظفروا بعناية وانتباه ، وشعروا بالطمأنينة والهدوء . وأثبتت أيضاً ان العوز وسوء المعاملة يؤثران في الطفل الذكي فيبدو غيباً

وان أكثر الأبحاث متعة هي محاولات بذلت لدراسة مستوى الذكاء في طفولة ثلثمائة رجل من عظماء العصر الحاضر ، معتمدة على ما جاء في كتب التاريخ عن طفولتهم وجاءت نتائج هذه الأبحاث تؤيد القضية القائلة بأن الذكاء لا يرافق — دائماً — النجاح في الحياة العملية ، على عكس ما يتراءى عادة . فلقد ظهر من هذه الأبحاث ان نابليون هو أعظم عظماء التاريخ الحديث يليه تسعة ان رتبوا فهم : فولتير وبيكن وجوته ولوتر وبورك ونيوتن وملتن وبت وواشنطن . ورغم ذلك فان معدل ذكائه وهو على رأس العشرة الأوائل يماثل معدل ذكاء واشنطن وهو الأخير فكلاهما مستوى ذكائه يساوي (م ١٤٠) . على حين كان ذكاء بورك يعادل (م ١٦٥) ولوتر (م ١٧٠) وكل من ملتن وبيكن (م ١٨٠) وكل من نيوتن وبت وفولتير (م ١٨٥) ولكن جوته بذات الجميع في ذلك فمعدل ذكائه يساوي (م ٢٠٠)

وانه ل يبدو أن العبقرية يصحبها الذكاء المبكر . وهذا هو الغالب وان لم يكن دائماً هو

الحق . فان جون ستيورت مل تعلم الاغريقية في الثالثة من عمره ، وقرأ افلاطون في السابعة ، وفي الثامنة درس اللاتينية والهندسة والجبر وحينما كانت سنه تربو قليلاً على السادسة كتب تاريخ رومة

ولشد ما يذهلنا أن يكون كريستيان هنيكين في الرابعة من عمره ثم هو يقرأ الألمانية ويتكلم عدة لغات ويشدو طرفاً من الرياضة والتشريح والجغرافية ، ويستظهر ١٤٠٠ عبارة مقتبسة من الأدب اللاتيني . ولقد أراد ملك الدانمارك أن يجلس الى العبقرى الصغير ، غير أن المنية لم تمهله فاختطفته وهو في الرابعة وأربعة أشهر

ثم ان كارل ويت التحق بالجامعة في الثامنة من عمره وحصل على شهادة Ph D في الرابعة عشرة وعاش حياة علمية عالية ناجحة مدى عمره الطويل البالغ ٨٣ سنة

والعظيم يأتي — عادة — بالفد من أعماله في صبح شبابه . فخوته كتب « آلام قتر » في الخامسة والعشرين من عمره ، وملتن نظم أناشيده العبقرية ، وهو عند الحادية والعشرين وشيلنج وضع مبادئ فلسفته وهو في العشرين ، وبيت تقلد منصب رئيس الوزارة البريطانية في الرابعة والعشرين

ومنذ تسع عشرة سنة قام العالم النفساني الفد الدكتور تيرمن بجامعة ستانفورد الأميركية ببحوث واسعة ، تبحث عن الذكاء الخارق في مدارس الاطفال على الشاطئ الباسيفي ولا سيما في كاليفورنية . فاختبر الاطفال العديدين ، من أبناء تلك المنطقة اختبارات ذكاء متشابهة فوجد ان نحواً من ١٥٠٠ طفل من هذا العدد الضخم حازوا (م ١٤٠) فأكثر مما رفعهم الى صفوف العباقرة

هذا العدد من العبقرين نما الآن واشتد وانغمز في الحياة يكافح ليكسب قوته ، وهم يخترقون سبلهم في نجاح تنقطع دونه أعناق زملائهم

والبنون والبنات من هذا العدد تزوجوا من أناس هم دونهم في الذكاء بمقدار ٢٥ درجة وأنجبوا أطفالاً عند هذا المستوى تقريباً ، وهو يقرب جداً من مستوى ذكاء آباء العبقرين وأخواتهم

والآن تنكشف أبحاث الدكتور تيرمن عن أشياء تبعث في النفس الدهش : فان ٢٥٪ من عباقرة نجبوا في الحياة نجاحاً فاق كل ما جناه الباقون ، و ٥٠٪ بلغوا مستوى متوسطاً والباقي أخفقوا اخفاقاً ظاهراً . وكان ما ربحه المئة السامية من مدة يربو كثيراً على أضعاف

ما جناه القسم المتخلف . وان أعجب العجب في ما جاء به الدكتور تيرمن هو ان فئتين من عباقرة الاطفال أثبتت التجارب تساويهما في الذكاء ، وعاشا معاً زميلين في الدرس وفي المدرسة نفسها ظهرت احدهما — مع ذلك — على الاخرى . لاريب ، في أن عاملاً بيئياً أثر في كل من الفئتين فأحدث هذا الفرق الواضح . ذلك العامل هو — كما قال الدكتور تيرمن — البيئة المنزلية وما بذرت في نفس الطفل من غراس الشخصية . فأطفال القمة هم أبناء الأثرياء الذين يستطيعون أن يهيئوا لابنائهم حياة راقية هادئة مستقرة . أما أفراد الطبقة الدنيا فهم غراس بيوت لا تعرف الهدوء ولا السعادة ، والآباء فقراء ، جلهم غرباء تهقهم ثقافة الاجنبية وشظف العيش في وقت معاً . وهكذا غلبت على الاطفال البيئة المنزلية فحذبتهم الى أسفل ، الى أسفل ...

وفي الحق إن الاطفال الموهوبين لا يؤدون عملهم المدرسي على الوجه الاكل ، لأن المادة تضجرهم فيرفضون العمل الا أن يجدوا فيه المتعة ، ثم قد تأتي الصدفة فتحيل حياة العبقرى الى شيء آخر : فمثلاً : نيوتن كان قد انتهى الى أن يكون فلاحاً امياً لولا أن زار — ذات مرة — طالباً في الجامعة من ذوي قرابته . وفراى هجر المدرسة في الرابعة عشرة من عمره ... هجرها الى الابد ... ولكن مجرى حياته تغير حين قرأ موضوعاً عن الكهرباء في احدى دوائر المعارف . وانه ليقال إن قرابة نصف العباقرة تبدو عليهم سيماء الذكاء وعودهم ما يبرح لدناً ، ورُبعم يشب دون ان ينبيء عن شيء من العبقرية

ولقد اثبتت التجارب أن الذكاء الحاد وليد الوراثة ، على حين أن الشخصية والخصائص هما من نواتج البيئة ، وأن التدريب السديد يستطيع ان يخلق من العبقرية بالقوة عبقرية بالفعل ، وأن أهم العوامل في تكوين هذه العبقرية اثنان : الخافز ، وهو أن يعيش المرء في بيئة تتطلب مقدرة عظمى وتقدر هذه المقدرة حق قدرها ، ثم الشعور بالأمان والهدوء منذ فجر الحياة

وإن ما يصدق على العبقرين ينطبق ايضاً على من عداهم ، فالذكاء والشخصية عند المتوسطين من الناس يتأرجحان إن هما وجدوا ظروفاً ملائمة طيبة . هذه القاعدة المهمة الواضحة يتجاهلها ، أو يتغاضى عنها القائمون على التربية ابتداءً من الوالدين الى الدولة ولقد أبان لنا العلم عن السبب الذي يجب من أجله أن ندفع عقولنا الى العمل ، وأن نزود الجيل الناشئ كل ما نستطيع من تدريب وتجارب نافعة واطمئنان ثم الشعور بالقوة والنجاح

القوى الخلقية

للموسيقى

- ٢ -

لعثمان علي عسل

برينو فالتر Bruno Walter من الموسيقيين المعروفين في العالم، فقد كان رئيساً لجوقة
أوبرة برلين وفينة وميونخ . وقام بعدة رحلات الى باريس ورومة والولايات المتحدة وقد
نشر هذا المقال في مجلة الماركيز دي فرانس Mercur de France (فبراير
سنة ١٩٣٩) مترجماً بقلم كولينت وباك فيشوت . وعن هذه الترجمة نقلنا هذا المقال

يحلوني الآن بعد أن عرضت ما نفهمه من ماهية الموسيقى الخالصة ، أن أوجه البحث
نحو النقطة الثانية وهي : ما تحدثنا به العبقرية المبدعة باللغة الموسيقية فما هي القوى الخلقية
للموسيقى المفكرة لعالم العواطف الانسانية ؟

إن الملحن يختار الموسيقى ليتخرج عن عواطفه . وهو ينقلها الى المستمع في لغة موسيقية .
والموسيقى كما يقول شيلر « توقف قوة العواطف الغامضة التي ترقد في القلب في سبات
غريب » وأنا أضيف الى ذلك أن الموسيقى وحدها هي التي تملك هذه القدرة لأنها تصدر من
هذه العواطف الغامضة وتعينها على الظهور في صورة واضحة . عواطف غامضة ؟ نعم !
ولكن ألا تحمل الينا أيضاً رسالة تفيض بالعواطف الواضحة ؟ ألم تكتسب الموسيقى بفضل
بيتهوفن ومن عهده قوة على التعبير عن حياة الملحن وسيرته

وأحب أن أنبه القراء الى الخطر الذي ينشأ عن عدّ الموسيقى كتاباً شخصياً للملحن
يصف فيه تجاربه وعواطفه . فإن ادخال الاعتراف الشخصي في اللحن لا يزيد في غزارته إلا
في اللحظة التي تتحول فيها التجربة التي نحيهاها ، برمتها ، الى موسيقى (كما هو الحال عند
بيتهوفن) فتنتهي التجربة من كونها تجربة بحيث لا يعطل قمتنا بالموسيقى البحتة تذكّر
حوادث واقعية . أضف الى هذا أن « العواطف الغامضة » لها أهمية كبيرة لا حد لها ، لأن
انتقالها من الملحن الى المستمع هو الذي يكشف قوة التفسير التي للموسيقى من حيث هي
موسيقى . فهي تعبر عن حالة الملحن القلبية حتى ان لم يستعمل بانتباه ، هذه الرنة أو تلك ،

لكي يعبر عن عواطف معينة . لأنها تتفجر وتندفق من أعماق النفس ، حيث لا يوجد وعي ،
وحيث تكون السيادة للذات الغريزية التي نبهتها قوة العواطف الغامضة . وأنا أعتقد أن
الموسيقى تعبر تعبيراً صحيحاً عن ذات الملحن

فكم يثيرنا قسم الـ Andante من سمفونية چوبتر ويبعث في نفوسنا الحماسة لأن
موسيقاه انبثقت من نفس (موزارت) الكبيرة في لحظة كانت فيها هذه النفس تضطرم
بالانفعال والحماسة . وفي هذا دليل على ثروة الموسيقى الصادقة . يقول ريتشار فاجنر
« لا أستطيع أن أدرك عبقرية الموسيقى إلا في الحب » وهو بهذا يكاد أن يعلن قاعدة
محددة . فلموسيقى مصادر سامية هي قوة عظيمة وفيض غامر من الحب . ونحن نجد في
في كل قسم Adagio من بهوفن — وهو أروع صورة يتحقق فيها الفن الموسيقي —
أنشودة حب تتردد . كما قيل في Le Joueur de vielle لشوبارت . وأحسب أنه اتضح
بعد ذلك ان الهاتف الخلقي الذي توجهه الموسيقى الينا بواسطة العبقرية المبدعة يتغلغل في
أعماق نفوسنا . فن منا يستطيع أن يقاوم رسالة حب لباخ أو لشوبارت أو لموزارت أو
لبهوفن أو لبرامز ؟ ولا تتركب الموسيقى بكل تأكيد من عبارات بطيئة كما هو الحال عند
بهوفن ، مع ان هذه العبارات تحتوي على جميع عناصر التعبير الموسيقي لأنها كما تعبر عن
عاطفة واحدة عميقة تعبر أيضاً عن تباين العواطف وكثرتها . فحياة المبدع النفسية لا تقوم على
عاطفة حب فقط ، بل على العكس من ذلك نجد أن الثراء التام للحياة الباطنة المتحركة تملأ النفس
بأنواعها وآلامها وكآبتها واضطراب العاطفة وخمودها ، ثم تتحول الى موسيقى . غير أنه
لا يسعني أن أعتبر هذا كله إلا تجزئة وتقسيماً للعاطفة التي توجد في المركز والتي تحتوي
على جميع الأجزاء . وأعتقد بأن الحال في تنوع الاحساسات ، وتنوع الموسيقى الناشئة
عنها ، ونسبتها الى مركزها ، كنسبة الألوان الكثيرة التي تتفرع من المنشور البلوري بالنسبة
الى الضوء الشمسي الذي يوجد في هذه الألوان جميعاً ويتحلل فيها وهو يبذل لها زخارته

ومن المهم أن نلاحظ أن ما نسميه بالموضوع في الحركات المريعة (الموضوع الثاني غالباً)
يرجع الى نوع الاداجيو والأندانت . كما هو الحال أيضاً في جميع السياق النغمي على العموم .
فلهذا النوع قدرة محددة مسلم بها بكل وضوح مهما تباينت صور التنوع الموسيقي

لم أنعرض حتى الآن إلا للموسيقى البحتة ، لأن التعبير (الدرامتيك) في الموسيقى
الوصفية أو المسرحية ، يطغى على الرسالة التي تحملها الينا ، تلك الرسالة التي تنبثق من قلب
الملحن ومن أعماق سريره . ومع ذلك فالموسيقى (الدرامتيك) تقدم لنا أكثر الصور
وضوحاً لقوى الموسيقى الخلقية ، ان لم تكن أعماقها وأبعدها غوراً . فنحن نشاهد في

مناظر الاوبره مخلوقات نبيلة ومخلوقات شريرة والدماس التي تدبر في الخفاء كما نشاهد النقيض والجحود والطهر والفجور والطيبة والحقد والذلة والعظمة ، وكلها تفرغ في قالب موسيقي لكي تظهر على المسرح . ولكن كيف تعبر هذه الموسيقى عن الخيانة والكرهية ؟ هل نجد لغتها النبيلة قدرة على التعبير عن هذه الافعال التي لا تمت الى الاخلاق بصلة كالتي نجد لها للتعبير عن المسائل الخلقية ؟ وهل تشمل رعايتها الابرار والاشرار على السواء . لا ، قطعاً ... فهي تنحيز الى أحد الجانبين . إذ تندفع بكل سخاء عند ما توحى الانسانية الرفيعة بالوقائع الدرامتيك ، وتصف بقواها حين تصف العواطف الدنيئة من الطبيعة البشرية . وبهذا المعنى نستطيع ان نقول ان الموسيقى مقياس للاخلاق

لنلاحظ جيداً أهمية الأدوار التي يقوم بها يهوذا والشهود المزورون والقديس الأكبر في « عذاب المسيح عند القديس متى » ، فهي تكاد تكون تافهة من الناحية الموسيقية . وكذلك انكار بطرس لسيد المسيح في ترتيل يبدو ضعيفاً ، في حين أن الترتيل يتحول الى موسيقى حقيقية إذ يتحدث أصحاب الأناجيل عن الندم ، ويصفون خروج بطرس وبكاءه المرير . والفرق كبير بين هذه الأمثلة التي ذكرنا آنفاً ، وبين أمثلة أخرى مثل اجواق الملاحدة في « المسيح المنتظر » لهيندل ، أو لحن يتسارو في « فيدليو » حيث تعبر الموسيقى بأسلوب حاد عن التهمك والحقد . ومن ثم تنشأ عبارات موسيقية تفيض بالحياة والقوة والروعة الدرامتيك . ومع ذلك اذا قارنا هذه العبارات بالعبارات الأخرى التي تناجي بها الموسيقى ، المؤمنين ، والعشاق ، والمنكوبين ، وفأري الشعور ، نجد الفرق بينها كالفرق بين البراق الذي يخضع للظلم فيدب على الأرض ويبدل قواه في احتمال أعباء أرضية ، وبين البراق الذي يفك قيوده ويحرر أجنحته ليحلق في آفاق السماء الواسعة . واذا فضلنا أن نعدل عن هذا النمط في التصوير ، نجد في عالم الموسيقى الذي لا حدود له ، مناطق يمكن أن نسميها « أرض البحث عن الوصف للانسان » ، « أرض البحث عن المنفعة رغم كل شيء » وهذه هي المناطق التي تتركها للشعر ليتصرف فيها . وهي مناطق متطرفة نائية تتصل بالناحية الغريزية العقلية من الطبيعة البشرية . فاذا قارنا في « فيدليو » الموسيقى الخاصة بدور يتسارو التي أشرنا اليها ، بأصوات أدوار لينورده وفلورستان ، نشعر بالمسافة المروعة التي تفصل بين المنطقة الخاصة بالأول والأجواء الخاصة بالآخرين ، حيث تسود فيها أسى قوى الموسيقى . كما نلاحظ أيضاً عند ما نعرض بدون نصوص الموسيقى التي تعبر عن الانحطاط الخلقي أن حظها من الموسيقى الحقة يسير ، في حين ان الموسيقى التي تصور العواطف السامية مجردة

عن نصوصها تثيرنا بقوة تعادل تقريباً قوتها حين نردها بالنصوص . لنأمل صوت «رحماك يا الهي» في عذاب المسيح عند القديس متى أو في دور ليونورة العظيم في فيديليو . ! وماذا قدم (موزارت) للدساس بارتولو ليتغنى به بجانب اللحن الذي أجراه على لسان الكونتس والذي يستدر الحنان، وعلى لسان موزان الفاتنة ؟ وأية صلة بين ترديد ألبريش السعير وميم الخاتل وترديد سيجموند وسيجلنده ؟ وكذلك بين أنغام فوثنان دساس «ذهب الرين» . ولنقارن أيضاً بين دور فوثنان الهائج في الفصل الثاني من «الفالكيري» بالموسيقى التي يتدفق بها تدفقاً سهلاً لئسنا وداع الحبيبة في نهاية الفصل الثالث . وكذلك تظل منطقة الأداجيو والاندانت مغلفة في وجه مؤلفي الموسيقى الغنائية التي تثير الحقد وروح الدس واردة الايذاء . على حين هذه المنطقة التي هي أوسع مناطق الموسيقى (لأننا نعرث على عناصرها في جميع العبارات التي تردد في حركات سريعة) وكذلك جميع القوى التي يمكن أن تمت إليها بصلة ، تتفتح آفاقها للعواطف السامية ويسهل قيادها لأصحاب النفوس النبيلة . وليس في وسعي أن أنعم هذه المقارنات بالزيادة : بالنظر من ناحية إلى القطع الموسيقية التي لها قدرة على التعبير الدنيء كما هو الحال في دور ليسياري «إريافته» لقيبر ، وظهور يتسارو على المرح وهو عازم على القتل في الفصل الثاني من «فيديليو» وبداة ألبريش في «ذهب الرين» . وبالنظر من ناحية أخرى إلى الأحوال التي يسهل فيها التمييز بين حالات النفس التي تعبر عنها الموسيقى حينما تنهل من أعماق مصادرها كما هو الحال في جوق فيديليو (آية لحظة يا الهي ...) ودور بامينة في *Flûte enchantée* وفي إعلان الوفاة في الفالكيري . غير أنه من المحتمل الاعتراض على ذلك بأنه كثيراً ما يمكن صياغة الشخصيات الهينة وحوادث الحياة اليومية ، والدس والخداع والكذب والبداة ، في لغة موسيقية بأسلوب ممتع أو جذاب دون أن ننقص من حقيقة التعبير الدرامتيك . وهذا يرجع في الواقع إلى نبل اللغة الموسيقية المجبولة عليه وإلى شخصية الملحن الفذة الممتازة

لهذا لم يكن من المحتمل أن يُعبر بسهولة تعبيراً موسيقياً عن العواطف الدنيئة . فهي على عكس ذلك تخضع بمرورها بالموسيقى نوع من التشكل . وهذا التشكل لا يبدو صناعياً في الجو السامي لفن الموسيقى . ومهما يكن جانب الموسيقى الروحية الممتعة الفاتنة ، الذي يخصص في الاوبرة ، لما في الحياة اليومية من دناعة وشر ، فإن الفرق واضح جداً بين هذه الموسيقى وبين الموسيقى التي تتدفق بقوة جارفة عندما تعبر عن السمو الخلقى . وهذا الفرق يكفى لأن يكون مقيماً حاسماً لتقويم الطابع الخلقى للمراحل الدرامتيك . ولكن

تقرير هذا الامر، الذي له مكانة خاصة في الاخلاق، لا يمكن ادراكه إلا على انه ينطوي في نفسه على عامل خلقي. ومما لاشك فيه ان هناك جواً آخر تنشر فيه الموسيقى جناحيها بكل سعة كما تنشرهما في جو السمو الخلقي: وأعني جو الحب. فينبغي أن نسلم بأن قوة الموسيقى السحرية المعبرة تكون أكثر انقياداً وخضوعاً للعاطفة الغرامية من العاطفة الخلقية، سواء كان ذلك في أرق عباراتها كما هو الحال في «أعراس فيجارو» أو في قوتها، الجذابة كما في *La ci darem la mano de Don Giovanni* أو في التجلي الذي يتجاوز طاقة البشر كما في «تريستان» لثاچنر. غير أن هذه القوة المعبرة لا تسلس للعاطفة الغرامية إلا إذا امتزجت بالحنو والوطنية والتجلي والحماسة. أي بالاجمال حينما يكون لهذه العاطفة علاقة بالأخلاق. فقدرة الموسيقى على الاقناع، عندما تعبر عن العاطفة الغرامية، تكون من القوة بقدر ما للمستوى المعنوي للعلاقات التي تعبر عنها من السمو. وإذا قدرنا مكانة القوى الخلقية للموسيقى والحياة الخلقية الخاصة بفننا يجب علينا أن نسلم بأن للموسيقى — نظراً لتطورها الذي لا يحد — تأثيراً أخلاقياً في ثقافة الانسانية على شرط ان تقبل الانسانية هذا التأثير. غير ان ماهية الانسان الخلقية معقدة، فالخير والشر يوجدان في طبيعتنا في مزيج متنافر. وليس من الممكن نظرياً الاجابة عن السؤال الآتي: هل تستطيع الموسيقى أن تسمو بأخلاق الكائن الحي وأن يستمر تأثيرها على الدوام، والى أي حد تستطيع ذلك؟ ربما سجلت ملاحظات عملية في هذا الشأن غير انها بالتأكيد نادرة جداً ولم تتم بطريقة منظمة تمكنا من أن نستخلص منها نتائج نافعة.

وأود أن أعرض بدقة لاحدى هذه الحالات التي انتهت الى علمي صدفةً وتبدو لي انها جديرة بالتنويه

زارني ذات يوم في سان فرانسيسكو رجل نصف (وقد نسيت مع الاسف اسم هذا الرجل الودود) وذكر لي انه موسيقي وان حياة السجونين كانت موضع اهتمامه. فلما تأمل في مصيرهم وفكر في أحوالهم النفسية وأمعن النظر في الاحتمالات التي ينطوي عليها مستقبلهم، خطرت بذهنه فكرة استخدام الموسيقى للتأثير فيهم. قد نجح في الحصول على موافقة مدير السجن على هذا المشروع. وبدأ يعلم السجونين الغناء الجوقي بأصوات كثيرة. وقد انتهت مساعيه التي ثابر عليها الى نتيجة مذهشة — كما زعم — فقد تغيرت أحوال كل مدجن تغيراً تاماً. ولم يكن التذاذهم بالمرح وسرورهم الحقيقي يتجليان في أوقات الدروس الموسيقية فحسب، بل لاحظ الملاحظ شيئاً من التحسن في علاقات هؤلاء الرجال الغلاظ

العنيدين رؤسائهم ، وفي صلاتهم بعضهم ببعض . وكانت العقوبات المتبعة لا توقع على من يرتكب منهم مخالفة من المخالفات ، بل كان يكفي أن يهدد المتهم بالابعاد من الدرس المقبل ، حتى يسهل قياده وتلين أخلاقه . ولم يطلق سراح أحد هؤلاء المسجونين — على قدر ما يعلم زائرني — ثم عاد مرة ثانية الى السجن . ومع ذلك فقد حبل بينه وبين الاستمرار في مهمته من عدة سنوات وأظن ، على ما أذكر ، أنه قد طرأ تغير على إدارة السجن أفسد عليه مجرى عمله . وقد لجأ إليّ ، كما لجأ الى آخرين ، ليجعلني أحمس لفكرته ، وأسعى له عند أصحاب الامر لكي يعود لازالة نشاطه ولينجح في نشر الدعوة لمشروعه . وقد سعيت له ولم ينجح مسعائي مع الأسف . واعتقد ان هذا الرجل الألوف الذي أطلعني على تجاربه كان يسير في الطريق السوي

من الواجب علينا أن نعتبر المجرم كائناً معادياً للمجتمع ، أو كائناً غير اجتماعي على الأقل ، بمعنى أن شعوره بالمجتمع يمازجه الفزع منه أو انه لا يبالي به ولا يكثر له الامر الذي يقيد من علاقته به . فهو من ثمّ وحيد في العالم ، تقيده شراسة ذاته ، ويعيش في عزلة رهيبة . ولم يتذكر محدثي (الذي بدا لي حجة في هذا الموضوع) أحوالاً تمكنت فيها الاحاديث الطيبة والمواعظ الحسنة من النفاذ في الدروع الصلبة لهذه الكائنات المنطوية على أنفسهم ، أو من التغلب على مقاومة هؤلاء المسجونين ، تلك المقاومة الوحشية الباردة ، إلا في حالة ما تعرض حياتهم الى خطر . فهنا حيث أخفقت الانفاظ الطيبة ، كان للموسيقى القدرة التامة على النجاح . لقد درب هؤلاء الرجال على الغناء الجوقي بأصوات كثيرة ، فكانت أرجاء السجن تدوي بالتوافقات وتطوراتها ، نتيجة لمجهوداتهم المشتركة فكان بعضهم يغني بـ « Si bemol » وبعضهم بـ « re » والآخرين بـ « Fa » ويواصلون جميعاً الغناء ويحصلون بذلك على السجم آخر . وبتأثير هذا الانسجام ، يتحول هؤلاء الرجال المحبسون في وحدتهم الى جماعة قادرة على اتيان عمل خيري . فهم قد تشرّبوا بروح الاجتماع ، وأحسوا احساساً مبهماً بجمال العمل المشترك . ومن ثمّ ندرك بسهولة ان نفوسهم تنطوي على حرارة جديدة وسمو جديد . وليس في وسعي أن أتبع التفسير بأحوال مماثلة

فمن الطبيعي أن ندع جانباً هؤلاء الذين يقفون كل حياتهم على الموسيقى ، ومع ذلك فعدد هؤلاء أقل مما نتصور . واني لا أتمنى أن يدرس في المدارس الغناء بأصوات كثيرة ، لسكي زربي في نفوس الاطفال ذوق العمل المشترك الذي يتجلى في صور مختلفة للانسجام فاني لا أزال احتفظ في نفسي — من أعوام دراستي الاولى — بالاحساس بالفراغ

الذي كان يثيره غناؤنا بصوت واحد ، وبالشعور بالخلاص التي كانت تملأ قلوبنا عند ما نغني بأصوات كثيرة

ولا أظن ان هذه السعادة التي أتذكرها الآن جيداً ينبغي أن أفسرها باللذة الموسيقية بحسب ، تلك اللذة التي يثيرها رنين أغني ، بل أيضاً بهذا الرضا المعنوي الذي كان ينشأ من هذا الاتحاد المنسجم بيني وبين زملائي . فعند ما يغني المنشدون بصوت واحد يكونون كتلة ، وعند ما يغنون بأصوات كثيرة يكونون مجتمعاً . وقوة الموسيقى هذه التي تنزع الى تهذيب الشعور الاجتماعي وتوجيهه نحو جماعة متألفة ، برهان جوهري على وجودها وعلى شدة قوتها التهديبية وليست هذه الجماعة مقصورة على جماعة العازفين ، ففننا يجذب الجمهور الى دائرته السحرية ، وسواء كان عدد المستمعين خمسة أو ألفين فإن نفس الموجة تدفعهم جميعاً الى أسنى درجات العاطفة ، فالموسيقى تحولهم الى جماعة مشتركة : أجل ! انني كثيراً ما أحسن عندما تقهرني قدرتها السحرية على التحول باننا نخضع لنوع من التحلل الذي ينتهي بامتزاج جميع الانفس في نفس واحدة . فالموسيقى تزيل من الحواجز المضروبة على الفرد ، عندما تدفعنا بلا مقاومة كنهر حقيقي من الحب . والنفوس الانسانية ، هذه النفوس المنفردة ، التي كتب عليها أن تقضي حياتها الأرضية في سجن دائم ، تتصل فجأة بالكون كله اتصالاً غير محدود ، وهي تحلق في آفاق العاطفة السامية كما تتطلع من وراء الغيب الى سلام أبدي . وفي وسعنا أن نتمثل ، أثناء التجلي الموسيقي ، بأقوال فاوست وهو يحتضر « انني أقضي أسنى لحظات حياتي وحيداً في ينبتني بسعادة عليا »

ويبدو لي بوضوح في اللحظة التي أختتم بها هذا المقال ، أنني عاجز عن اثبات ما تعرضت له بطريق العقل . فمن الواضح أن كل ما كتب وما سيكتب عن الموسيقى ، مع استثناء الوقائع التاريخية ، يجب أن ينتهي بعلامة استفهام لا بعلامة وقف . وانني لأضع هذا البحث تحت هذا التعبير الرضوي . . .

وليس من قبيل أحلام رجل موسيقي بذل عمره كله في حياة موسيقية ، ما أصبو اليه من ابداء الرأي وعرض الاقتراحات ، فالموسيقى تكشف أسرارها بنفسها في فصاحة قاهرة الى هؤلاء الذين يتفتح لها شعورهم

استسلم لندائها إذن ، أصغر الى « أداجيو » لبتوفن . وصل نفسك بعد ذلك أأست على حق فيما أقول ؟ ألا تهدي الموسيقى شعورنا الخلفي الى سبيل يتفق مع سلوك الضمير ؟ وأخيراً ، ألا تطبع هذا الشعور الخلفي بطابع مقدس ينقيها ، بما لها من قدرة عجيبة تتصل بالقدرة الالهية . . .

هذه الحرب

نضالان (١)

يكاد الرأي يتفق بين علماء الاجتماع البشري على ان هذه الحرب ليست حرباً بالمعنى العادي المألوف من الحروب ، بل هي مزيج من لونين من النضال ، النضال القومي ، والنضال الاجتماعي الذي يرمي الى احداث انقلاب في حياة البشر . في الناحية الواحدة نضال قائم بين الأمم المتحاربة ، وفي الناحية الاخرى نضال قائم بين طبقات من الناس ، وآراء يعتنقونها في التنظيم السياسي والاقتصادي والاجتماعي . اما الاول فالوحدة فيه هي الدولة المؤتلفة او المحالفة لدول اخرى . وأما الثاني فيتعدي حدود الدول ، ويخرج عن نطاق الولاء القومي ، بل ربما مزق الجبهة القومية وقطع أوصالها . وهذا اللون من النضال ، هو مظهر الانقلاب في نظم العمران ، واللوحة الواسعة التي ترسم عليها ، صور المعارك الدائرة الرحي في البر والبحر ، وفي أطباق الفضاء

خالة العمران الذي يتجاذبه هذان اللونان من النضال ليست بالامر الذي يسهل تبسيطه وتبين العوامل المتعددة المتفاعلة فيه . وكثيراً ما يخطئها الجمهور من الناس . وقد يخطئها فريق غير يسير من قادة الجمهور . وكل عمل يعمل يجب ان ينظر فيه قبل الاقدام عليه ، ثم يجب ان يحكم عليه بعد انجازه ، ثم يجب ان يقاس في الحالين ، بل هو عمل يصلح من الناحية القومية ، أو هو مخالف لمصلحة طبقة من الطبقات ، أو كتلة من الكتل . وقد تمثلت هذه الحقيقة في غير بلد واحد قبل يونيه ١٩٤٠ ، وقبل ٧ ديسمبر ١٩٤١ . وقليل من الناس يستطيع ان ينظر نظراً مجرداً الى التغير الدائم في ازمة العمران المتعددة الوجوه ، المتداخلة العناصر ، فيميل الى اقامة الوزن الاكبر في اعتباره ، للوجوه التي تعنيه ، وتسمه في المقام الاول ، مهماً للوجوه الاخرى ، بعض الاهمال او كله . فمن الناس ، من يعنيه في المقام الاول ان هناك طائفة من الدول ، المعتدية ، تحاول ان ترفع نير طائفة اخرى من الدول القائمة ، لتخلق هي بدورها امبراطوريات جديدة . ومن الناس كذلك ، من يعنيه في المقام

الاول ، طابع الانقلاب ، الذي يتميز به العهد الأخير من الحضارة . فيعتقد ان النضال الاصيل انما هو صراع بين الافكار أو صراع بين النظم السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، التي تتجلى فيها هذه الافكار ، او تسعى الى ابرازها فيها . وقد يذهب بعضهم ، الى أبعد حد في هذا النظر ، فينكر النوع الاول من النضال ، اي النضال بين الامم ، ويؤكد ان هذا اللون من النضال متصف بصفة مصطنعة تخفي وراءها النضال الثاني وهو عندهم النضال الصحيح الاصيل

والحقيقة طبعاً ، هي ان كلاً من هاتين المدرستين ، من مدارس الفكر والنظر متأثرة بالتنشئة الفكرية والخلقية التي نشئت عليها ، ميالة الى ان تعلي من شأن المسائل التي تهمها في المقام الاول ، مهمة المسائل الاخرى . وليست هذه الحالة بالحالة الجديدة ، الفذة المقتصرة على هذا العصر من عصور الحضارة . فعاصرو الثورة الفرنسية ، وعهد نابوليون واجهوا هذه المشكلة ، كما تواجهها أمم الأرض الآن . ولا يزال المؤرخون الى الآن غير متفقين على اي الاثرين الكبيرين من آثار نابوليون أهم وأجدر بالتقديم . أهو أن نابوليون فتح معظم اوروبا ، فأفضت فتوحاته الى قيام حدود سياسية جديدة ، وتوازن سياسي جديد ؟ أو أن نابوليون نشر عن طريق فتوحاته الافكار الحية المحركة للدافعة التي كانت منطوية في الثورة الفرنسية نفسها ؟

وما حدث حينئذٍ حادث الآن . ولكن المشقة التي نعانها في استشفاف الحقيقة هي ان ما هو حادث الآن حادث لنا . فنحن في غماره ، أردنا أم لم نرد . والرجل الذي ينكفي عن تدبره ، واستيضاح ما يجب عليه ، بصدق واخلاص ، هو أحد دعاة الهزيمة في معركة السلام والحضارة ، ويحق عليه ما يحق على دعاة الهزيمة ، في حرب الدفاع عن الكيان . بل أن النكير عليه أشد وأنكى لأن معركة السلام والحضارة هي معركة البشرية جمعاء . بل ليس في وسع احد الآن ، حتى ولا العالم الرياضي الذي لا يعنى الا بالرموز والمعادلات ، ان يقيم في برجه العاجي ، يطل منه على تيارات الحياة ، بغير ان يخوضها . فهذا الرجل ، يجب ان يهمله على الاقل ان يتاح له الجو الحر الذي يستطيع فيه ان يفكر ، ويبدع ، على سمحيته ، واتاحة هذا الجو الحر مسألة اجتماعية يجب ان تعنيه

ان تاريخ البشرية ما فتى منذ الازل نضالاً بين طرازين من الرجال . أما الاول فهو الرجل المنتج المبدع ، الخلاق . وهذا الرجل لا يحتاج الى شيء كعاجته الى الاستقلال ، كي يفكر ويعمل . فلا هو يسعى الى السلطان والسيطرة على الغير ولا يحتاج اليهما ، ولكنه

كذلك رجل لا يستطيع ان تكرهه على التفكير والعمل اكرهاً . وأما الآخر ، فهو المستكين المسيّر ، أنه نوع من الطفيليات يخشى الاستقلال ، ويرغب في ان يؤمر فيطيع . وان يوضع له النظام المحكم الدقيق فيجري عليه ، فيكون فيه ترساً في عجلة في آلة كبيرة . فهذا الرجل يوافق على النظام الذي يقوم الطاغية على رأسه — أيًا كان منشأ الطاغية — لان ذلك يعفيه من ضرورة التفكير والعمل المستقل .

ان السلطان والحرية غير متنافيين ، وفي وسع البشر ان يتمتعوا بالحرية بغير ان تهم القوضى ، وفي وسع الحكومة ان تمارس السلطان بغير ان يفتش الاستبداد . والناس يجب ان يكونوا سواءً امام القانون ، فمصيرهم ليس متعلقاً بنزوة حاكم طارئة ، أو شهوة شرطي سري . وهذه القواعد جميعاً مردها الى الايمان بأن للانسان الفرد كرامة في ذاته ، فيجب ان يمنح حريات أساسية لكي يتاح له النمو العقلي والروحي المتسق ، وهذه الحريات هي روح الحضارة ، واليها مرجع كل ارتقاء

ونحن ابناء هذا الشرق ، في دوله المختلفة ، قدجنبنا تجنباً كبيراً ، معظم أهوال الحرب — بالمعنى الاول — ومحنها . ولكننا لم نجنب ، ولن نجنب مشاق الحرب الثانية ، أو النضال الثاني . فحركة الحضارة لا تنتهي . وصراع الحرية صراع مستمر يتجدد كل جيل . وأنكر خطيئة نبلى بها في هذا العهد الذي يتمخض عن صور جديدة من الاجتماع البشري هي خطيئة عدم المبالاة . وكلما أمعنا في دراسة الاسباب الباعثة على مهوض الحضارات وانحطاطها وجدنا صفحات التاريخ حافلة بالامثلة ، على ان كل تقدم مرده الى الافراد العاملين المبدعين الاخلاقين ، فهمؤلاء يجب ان يربوا التربية الحسنة وان يتاح لهم الجو الحر الذي يستطيعون ان يبدعوا فيه وان يعملوا وهذا هو الهدف الانساني الاعلى

* وضع « كروتشي » الفيلسوف الايطالي مجلداً ضخماً في فلسفة التاريخ جعل عنوانه « التاريخ : قصة الحرية »

* على رجال العلم ان يحاربوا حريين — حرب المدافع والطائرات والدبابات ، بما يضيفونه الى أدوات الحرب من ضروب التحسين والاتقان ، وحرب الفكر لتحقيق الحرية التي لا يزدهر علم ما الا في ظلها

كتاب « العلم ونظام العالم »

عمر الخيام

كما أعرفه

لمحمود المنجوري

هل عمر الخيام ضرافة

٣ — الوثائق التاريخية التي وردت فيها اخبار عمر الخيام

القسم الثالث * — وثائق وتعليقات دوّنت في القرن التاسع للهجرة وما بعده
(١) — فردوس التواريخ لمولانا خسرو الابرقوهي سنة ٨٠٨ هـ جاء فيه عن الخيام ما يأتي:
عمر هو ابن ابراهيم الخيام فذاً اقرانه في غالب علوم عصره وخصوصاً في علم الفلك ،
وهو مؤلف لايبحاري ، وشاعر مقطوع النظر ، ومن أشعاره

هر دره كه در روى زمينى بود ست

خورشد رخى زهره جبينى بود ست

کرد آذرخ نازنين با زرم فشان

كان هم رخ وزلف نازينى بود ست

ان كل ذرة في الوجود ما هي الا وجه جميلة بدده الزمن . فيارفيقي قم فانهض هذا
الغبار في لين ورفق ، ان هذا التراب كان وجه فتاة وضاحة الجبين
(ب) رياض الشعراء حوالى ١٣٢٨ هـ (١) . وفيه ما ترجمته :

كان عمر احد علماء عصره البارزين ، وكانت له مكانة رفيعة فقدّره السلطان منبجر
وقربه من مجلسه وأجلسه على سريره ، وكان في ايام الشباب قرناً في المدرسة لنظام الملك
وحسن الصباح ، واشتهر وهو في مقتبل العمر بالورع والتقوى والاستقامة والتسك بتعاليم
دينه ، ولكنه لما بلغت به السن مبلغها وأشرف على الكبر عكف على معاورة الخمر يرتشف

(١) ذكر رس ان هذا الكتاب الف سنة ١٧٨٤ م وانه عثر فيه على ما ترجمناه هنا وهو مودع
بمخزاة المتحف البريطاني مجلد ١٥٥ رقم ١٦٧٢٩ ولم يذكر اسم المؤلف . وقد تحققنا من ان هذا الكتاب
وهو مختصر كتاب اخبار العلماء للقطبي واختصره الزوزني باسم تاريخ الحكماء طبع لبسبك سنة ١٩٢٥
واما كتاب اخبار العلماء فقد طبع بمصر سنة ١٣٢٦ هـ وهو معجم تاريخي للفلاسفة والاطباء والعلماء
الطبيين واصحاب الرياضيات من العرب وغيرهم — راجع ياقوت وجرجي زيدان

من كاساتها ضالته من الحكمة ، وما زال يشرب حتى يفقد الوعي فعرّض نفسه لسخرية الناس وذكروا ان أمه بعد وفاته كانت تعكف الى الله بأكية مصلية نادمة طالبة لابنها المغفرة والتوبة ، وان عمر جاءها ذات مرة في الحلم وأنشدها رباعية ذكرتها وتضرّع اليها أن تكف عن الدموع والاستغفار له « فما كان البكاء والاستغفار بمنقذ عمر من النار ! . وليس لمخلوق ان يعلم الله كيف يرحم عباده ! »

هذه وثيقة طريقة حقاً جاءتنا بالجديد من المعلومات ، فعمّر كان أيام شبابه عفاً ، تقيّاً ولكن الحال تغيرت به أيام شيخوخته ، فشرب وعبت ، وعاشت أمه بعده تطلب له الرحمة والغفران . ثم جاءها في المنام ، وأنشدها رباعية

وفي الحق اني لا أستطيع ان آخذ بهذه الوثيقة في جملتها ، ففيها أمور كأنها قصة صادرة عن خيال منمق رفيع ، ولهذا لا أجدها في الجملة مرجعاً تاريخياً ، فليس من المعقول أن تبقى أم عمر — وهو المعمر — حية من بعده ولها من المواهب ما يحفظ رواية الشعر وروايته عن المنام !

ونص هذه الوثيقة يقرر بأن عمر عاش الى زمن رأى فيه (منجر) بن ملك شاه سلطاناً ، وبأن منجر قرّبهُ وأجلسه على سريرهِ . واني لأجد من الخير ان أقرن ما ذكرته هذه الوثيقة بوثيقة قديمة كتبت قبل هذه بنحو ٨٢٢ سنة كتبها العروضي السمرقندي أحد تلاميذ الخيام ظفرت بها في كتاب زهرة الارواح للشهرزوري نقلاً عن (جهار مقالة) وترجمتها : ودخل — أي عمر — على السلطان منجر وهو صبي وقد أصابه جذري ، فلما خرج سأله الوزير كيف داويته وبأي شيء عالجته فقال عمر : بالصبي مسّ ، فسمي بذلك خادم حبشي الى السلطان . فلما شفي السلطان أبغضهُ

ونحن نستطيع ان نحجي من هذا النص الاخير ان عمر دخل على الصبي منجر بن ملك شاه لما كان ولياً للعهد ، وكذلك تؤيد هذه الوثيقة الرأي القائل بان الخيام درس الطب وحذقه حتى استدعاه السلطان ليطبب ولي العهد

(ج) التاريخ الالفي ^(١) ذكر الخيام في التاريخ الالفي ، وهو مصدر وضع بعد القرن الرابع عشر . في سفر سجل الحوادث التاريخية في الالف عام الاولى للهجرة للحياة الاسلامية فهو يتناول سرد الاحداث الى القرن السادس عشر للميلاد

وهو مختصر زهرة الارواح للشهرزوري ، وقد جاء فيه ما خلاصته : الحكيم عمر الخيام هو واحد علماء خراسان وهو في الفلسفة صنو ابن سينا

ونستطيع ان نعلم من مراجعة تاريخ الشهرزوري^(١) ان عمر قد ولد في مدينة نيسابور وان أسرته نيسابورية الأصل والمنشأ ، ولكن البعض يزعم انه ولد في قرية شمشاد التابعة لمدينة بلخ ، وبعضهم يقول بأنه مولود في قرية (بسنك) التابعة لاستراباد . على ان الذي يؤكد الشهرزوري هو ان عمر مولود في نيسابور^(٢) . وكان ضئيلاً في التأليف والنشر فلم يخرج كتباً كثيرة وله فيها (ميزان الحكم) في ماهية الأحجار الكريمة و (لوازم الأمكنة) في فصول السنة . ويستدل من تأليفه على انه كان يؤمن بتناسخ الأرواح فروى انه في مدينة نيسابور مدرسة قديمة أخذ في اصلاح بنائها ، وبينما كانت الحميز تحمل مواد البناء الى المدرسة ، كان الاستاذ عمر الخيام يتمشى في فناء المدرسة مع جماعة من تلاميذه ، فبصر بحمار يحجم عن الدخول في استحياء ، فابتسم الخيام واستبق الحمار وأمر في أذنه الرباعية الآتية

أي رفته وباز آمده بل هم كشته

نامت زمیان نامها كم كشته

ناخن همه جمع آمده وسم كشته

دیش ازبس کون در آمده دم كشته

يعني : يا أيها الذي غاب ورجع مرة أخرى من الأنعام ، ذهب اسمك بين الاسماء وقد تبدلت أظافرك وصارت ظلفاً ثم بدت لحيتك في عجزك ذيلاً

فدخل الحمار المدرسة في غير تردد ، فسأل التلاميذ استاذهم ما شأن هذا الحمار ؟ فقال لهم ان الروح التي علفت بهذا الحمار كانت لاستاذ في هذه المدرسة ، لهذا تردد الحمار في الدخول استحياءً من الرفاق ، فلما علم ان الاصدقاء قد عرفوه دخل وقضى الأمر

فان تعجب فعجب كيف أخذ بعض المستشرقين هذه الرواية اخذاً صحيحاً فنقلها ذوكوفسكي عن التاريخ الألفي وأكد بها ان خياماً كان يؤمن بتناسخ الأرواح ، ثم نقلها غيره أمثال رُس وأكد بها في أبحاثه بأن الخيام كان مؤمناً بالتناسخ ، مع ان هذه الرواية في وضعها تعارض ما ذكر عن الخيام من حكمة وفلسفة ، فهي في تأليفها خرافة أو فكاهة مدسوس بها على فيلسوف مفكر له نقاد ومعارضون فما كان لرجل مثل الخيام له وقاره ومركزه العلمي والفلسفي^(٣) ان يسر الى حمار شيئاً في أذنه يحول الحمار عن قصده ،

(١) راجع وثيقة الشهرزوري التي أوردناها في وثائق القسم الثاني

(٢) نيسابور مدينة فارسية فتحها المسلمون أيام عثمان وفي رواية أيام عمر ثم استردها عثمان وهي مشهورة بأهل العلم كالامام الموفق استاذ عمر الخيام — ياقوت

(٣) لقب الخيام في عصره بألقاب علمية ، فسماه السمرقندي « حجة الحق » والبيهقي « الامام » والنسوي « سيد الحكماء » ولقب في عصره بالفيلسوف — جامع البدائع

والرباعية في شكها سخرية ليس لها من مثيل في تأليفها وموضوعها في جميع الرباعيات حتى المنسوب منها الى الخيام . ولم يذكر في أي مصدر من المصادر التي ذكرت الخيام انه كان استاذاً في مدرسة نيسابور ، مع ان هذه الرواية تدل على انه كان استاذاً في هذه المدرسة ولهذا ليست لهذه الوثيقة أي قيمة تاريخية من ناحية الحكم على عقيدة الخيام وإن أخذ بها بعض المستشرقين أمثال زوكوفسكي ورُس وغيرها

وسنترك مناقشة عقيدة الخيام في التماسخ لمكان آخر من هذا البحث هذه هي الوثائق التي استطعنا الى الآن أن نصل اليها وهي حجج قاطعة ترد دعوى الدكتور ملر بأن الخيام خرافة

وهناك وثيقة أخرى جاء بها الشيخ مير خند جواندمير صاحب كتاب روضة الصفا وهو من علماء القرن الثامن للهجرة سجل فيها وصية نظام الملك ، ولقد سلخناها من وثائق القسم الثاني لقيام شك المستشرقين فيها ، ولأن السير رُس قطع بعدم صحتها . واليك نص هذه الوصية عن الفارسية :

وصية نظام الملك

نقل الشيخ مير خند هذه الوصية في كتابه روضة الصفا (ج ٤ ص ٦١) وهو من علماء القرن الثامن للهجرة ، ولقد أخذ بعض العلماء هذه الوصية وثيقة صادرة من نظام الملك نفسه كما رفض البعض الآخر الوقائع التي وردت فيها . واليك ترجمتها :

« قال الاستاذ نظام الملك أسبغ الله عليه فيض رحمته ، كان الشيخ مؤلفاً نيسابوري رحمه الله رحمة واسعة من أعظم رجال خراسان علماً وحكمة ، وكان رجل وقار وبركة ، ناهز من العمر الخامسة والثمانين ، وذاع صيته وآمن الناس بأن من قرأ عليه القرآن والحديث نال مرتبة عالية وشرفاً رفيعاً ، ولهذا بعثني اليه أبي مع الاستاذ الفقيه عبد الصمد ، فخرجنا من طوس وسعينا الى مجلسه في نيسابور أطلب العلم وأجد في التحصيل من فيضه الموفور ولقد شملتني عناية أستاذي واحتوتني رعايته ، فوقع من قلبي موقعاً . ونال مني محبة واحتراماً ، ولبثت على هذه الحال أربع سنين

وحدث أن رأيت عند مقدي اليه طالبين يبلغان من العمر ما بلغت ، قد وصلا اليه ولما يمض عليهما غير يسير ، وهما الحكيم عمر الخيام ، والمعلون حسن بن الصباح ، وكان لهما حظ من الذكاء وفير ، وما لبثنا حتى كانت بيننا مودة ربطتنا برباط قوي متين فاذا انتهينا من حلقة إمامنا معينا إليّ نستذكر دروسنا كل يوم

وكان عمر نيسابوري المولد ، وأما حسن بن الصباح فكان أبوه من الري ، وكان رجلاً صعب المراس ساء مذهبه وخبيث مشربه وفسد معتقده ، نشأ حسن في الري في زمن وليه أبو مسلم الروزي ، رجل الفضل والعقيدة ومكارم الاخلاق ، بينما كان حسن ملحدًا خارجًا على الجماعة وأهل السنة مكثراً من اظهار مفاسدهم ، ولكنه كان اذا حضر مجلس الوالي أبي مسلم اصطنع الورع والتقوى ، ودفع عن نفسه الريب والشكوك ، واتخذ من تلمذته على الامام موفق النيسابوري ، وهو امام أهل السنة والجماعة في نيسابور ، دافعاً للشبهات مستافاً وتديلاً . فلابد لدروس الامام متخذاً الزهد والعزلة دليلاً على صدق طويته وسلامة معتقده ، ولكن حاله كانت مترددة فرويت عنه دعوة الاتحاد وشاع مرقه بين الكافة ، وكان يدعي انه عربي المنتسب حميري القبيلة من آل صباح ، وان والده من الكوفة نزل الى (قم) ثم انحدر الى (الري) ولكن ذلك ما كان ليأخذه أهل خراسان بل أنكروه على حسن ، وكذب به أهل طوس ، وذكروا ان أباه كان قروياً صعلوكاً من أهالي خراسان

ولقد جاءني حسن ذات يوم واستبق القول فقال : نحن تلاميذ الامام موفق النيسابوري ، فلا بد لنا من نوال حظوظ مسعودة ، فان لم نلها جميعاً فلا بد من واحد منا نائلها . فمن هذا السعيد الذي سيحظى بفيض الامام وتوفيقه ، فأبي عهد نستوثقه بينما حتى يرعى صاحب الحظ أخويه ؟ فقلنا ليكن ما تريد . فقال فليكن بيننا الميثاق على ان من ينال رفعة وحظاً أشرك أخويه فيما أتاه من الدنيا . فقلنا : فليكن هذا الذي تقول والله على ميثاقنا شهيد . ومضت السنون ودارت الايام دورتها ، وتنقل بي السفر من خراسان الى ما وراء جيحون ، ثم استقرت بي المقام في غزنة وكابل ، ولبثت فيهما رجعاً من الزمن ثم عاد بي النوى الى بلدي وأهلي ، فوكل إلي السلطان اب أرسلان عملاً مسؤولاً وقلدي وظيفة خطيرة . ثم امتوزرتني على رعيته ، فجاءني عمر الخيام فأكرمت وفادته ، وذكرت ما تعهدنا به من حسن الوفاء . وعرضت عليه ان من كان على عامه وفضله وجب أن يلزم مجلس السلطان . وقلت له سأذكر فضلك عند ربي ، فهيء لك مكانة في نفسه لتقع منها موقعا . فتصيح من نفسه كشخصي حظوة ومكانة . فقال الحكيم الخيام : لقد دعاك مبيتك الطيب ودفعك نفسك الكريمة وألهمك وفاؤك الحسن الى ما عرضت ، وفي الحق لست أنا غير رجل ضعيف متواضع لا يليق لأن يكون ما أردت من شرف ، فاست قيناً بتواضع وزير المشارق والمغارب ، وان هذا الالتفات الرحيم الذي آثرني به ليس بالشيء الكثير ولا الغريب عن خلقك الكريم وشأنك الخطير ، فلتكن أياديكم باقية عليّ أبداً الدهر واني لو قضيت العمر

شاكرآ لكم لما أجزيت الوفاء حظه ، فلا تكن يا مولاي موضع الخضوع لمقامكم ولست بقادر أن أرد ما أمرت أو أدفع ما شملتنني من عطف فان في الرد كفوآ وججودآ ، على اني لا أبغي من الدنيا إلا أن ألبث في دولتكم متصلاً بكم مشغلاً بنشر العلم والمعرفة داعياً لكم بطول البقاء

ولم يتحول عمر عن كلامه ، وأيقنت انه مدفوع اليه عن ضمير ورغبة ، فعينت له كل عام ١٢٠٠ دينار من بيت المال في نيسابور ينفقها في شئونه ، ولكن عمر عاد بعد ذلك الى موطنه وعكف على دراسة علومه خصوصاً علم الهيئة الذي بذ فيه الاقرا ن وبلغ منه مبلغاً رفيعاً ، ثم عاد الخيام الى (مرّو) وأخذ في تدريس علم الحكمة في عصر ملك شاه ، فقرّبهُ الملك وأعزّه ، وبلغ الخيام في عهده مبلغ كبار العلماء والحكماء »

وذكرت الوصية ذهاب حسن الصباح الى نظام الملك يستوفيه عهده ، وان الوزير ترك له الخيار في ولاية الري واصفهان . ولكن حسن لم يكن ليقنع بهذا الذي عرض عليه فأحسّ بهذا نظام الملك، فقدمه للسلطان حاجباً له ، وظل في مركزه يربق الفرص ويتحينها ، وأبى إلا أن يكون خوّاناً غدراً فراح يعبث في البلاط سعاية ووشاية ، فسعى بالوزير لدى السلطان ثم افترض أمره فشقّ عصا الطاعة وخرج فاضباً مورتوراً معلناً الثورة العامة

مجل رأي الذين يرفضون وثيقة نظام الملك

نشكك غير واحد من المستشرقين في الوقائع التي نطقت بها هذه الوثيقة ، وجأشوا تأييداً لشكهم بأسباب اعتمدوا عليها في تقرير عدم صحتها ونسببتها الى الوزير نظام الملك ، ومن هؤلاء العلماء السير رُس والمستشرق هوتزما

ولقد توسلوا الى عدم صحة هذه الوثيقة بالتشكيك في اجتماع الرفاق الثلاثة عمر ونظام الملك وحسن الصباح في مدرسة واحدة لاستحالة تقارب أعمارهم ، وقد أيّدوا ذلك بأدلة أوردوها ، وبهذا تمكّنوا من إيجاد برهان على ان هذه الوصية لم تصدر من نظام الملك وفي هذا يقول السير رُس :

« أخذ بهذه الوصية جميع الذين درسوا عمر ، وقبلها العمريون على أنها شيئاً تاريخياً لا يتناول اليه الشك ، على الرغم مما تحوي من تناقض تاريخي ملحوظ

على اننا نستطيع أن نبهت عن التاريخ الأدبي لهذه الوصية، فنجد انها ذكرت لأول مرة في كتاب المؤرخ الفارسي الشيخ مير خند ، فلما اراد المتقدمون من الباحثين ان يبحثوا في صدق هذه الرواية ومبلغها من الحق التاريخي وجدوا انها دُوِّنت تدويناً معقداً في القرن

الخامس عشر للميلاد ، أي بعد عصر الخيام بنحو الف سنة ، وانها لم تكتب في المراجع التي ذكرت الخيام في السنوات التالية لعصره ، وانها منسوبة الى الوزير نظام الملك وبدأ المتأدون يعملون الى رفض حكاية الرفاق الثلاثة التي سجلتها وصية نظام الملك ، وانظروا اليها نظرهم الى رواية مشكوك في وقائعها ، فقال المستشرق هوتزما أن واضع هذه الوصية قد خلط بين نظام الملك وبين وزير آخر من عظماء الفرس وهو أنوشروان بن خالد ، فلقد ذكر أنوشروان عن نفسه انه هو الآخر كان في المدرسة مع حسن الصباح ، ولكن هذا الرأي قد ناله فتور ، وأصابه اعراض ، لما أخذ المستشرق برّون بوصايا نظام الملك وأكّد صحتها ، ولقد سارت مسير الحقائق التاريخية في القرن الرابع عشر للميلاد ، والرأي عندي هو ما وآه هوتزما ، فقد يحتمل أن تكون الخرافة قد بدأت كما تبدأ الخرافات دائماً بالخلط بين الاشخاص ، فقد يكون أحد الاشخاص أو الرواة ، قد خلط الأمر ما ، بين الوزيرين نظام الملك وأنوشروان ، ونسب ما قرره أنوشروان عن اجتماعه هو وحسن الصباح في مدرسة واحدة الى نظام الملك ، وتناسى الناس حقيقة الأمر وذكروا الواقعة منسوبة الى نظام الملك

على أني اميل الى رفض قصة الرفاق الثلاثة لسببين : الاول ان المؤرخين المتقدمين والذين اتصل عصرهم بعصر الخيام أو قرب منه لم يذكروا وصية نظام الملك ولم يشيروا اليها ، الثاني ان ليس من المعقول تعمير الخيام وحسن الصباح معاً هذا الاجل الطويل ، فجميع المراجع أجمعت على أن مولد نظام الملك كان في سنة ١٠١٧ م اذ انه مفروض ان الخيام وحسن الصباح كانا قرنين لنظام الملك فتكون سنة مولدهما على وجه التقريب هي نفسها هذه السنة أي سنة ١٠١٧ م ، وقد ذكر ان عمر الخيام مات سنة ١١٢٣ م على حين مات حسن الصباح سنة ١١٢٤ م أي انهما عمراً نحو مائة سنة وست ثم وسبع . فان حدث وطال هذا الاجل لأحدهما فكيف حتمت الاقدار أن يطول الاجل لكليهما !

على انه لو ظهر ما يُعيننا على تحديد ميلاد حسن أو عمر في سنة متأخرة اذاً لرجعنا بهذه الوثائق التي تهيب لنا اسباب الحكم على سلامة قصة الرفاق الثلاثة أو على مبلغها من الانتحال . واذا أقننا الحجة على ان حسن الصباح لم يكن مع نظام الملك في مدرسة واحدة ، كان في هذا الكفاية على نقض الثقة في قصة الرفاق الثلاثة ، وعلى انتحال الوصايا ونسبتها الى الوزير نظام الملك ، على انني أرى انه اذا لم يتح لنا إقامة حجتها هذه على إبطالها وجب علينا اذا أخذنا بها ان نعتمد على شهود رأوا الرفاق الثلاثة في مدرسة واحدة ، فليست المراجع وحدها كافية لأن تكون دليلاً على مثل هذه القضايا ولكن الاثبات فيها يكون قوياً مدعماً اذا ما أكدته البيّنة

ولقد اطلعنا على مذكرات لوزير فارسي مشهور ، وهو انوشروان بن خالد ، الذي سجل على طائفة الاسماعيلية كبارها وخفاياها ، وذكر لحسن بن الصباح وأتباعه جرائم وأناماً ، وليس من شك في ان هذه المذكرات سجلت أهم الأحداث التاريخية التي عاصرتها او التي اتصلت بعصره اتصالاً وثيقاً ، وهي على وجه التحديد الأحداث التي وقعت بين موت الفاتح ارطغرل بن محمود وبين حكم ملك شاه أي بين سنتي ١٠٧٢ م — ١١٣٤ م . ولقد ترجم هذه المذكرات الى العربية المؤرخ الاسلامي عماد الدين الاصفهاني احد خالصاء صلاح الدين ، وذيلها بتضمين لتاريخ السلاجقة ، ثم أعاد نسخ هذا التاريخ البنداري في القرن الثالث عشر للميلاد

هذا هو التاريخ الأدبي الذي نشره هوتزما سنة ١٨٨٩ ، وإنك لتجد في صفحة ٦٦ من النسخة العربية المذكورة بيانات طريفة سجلها انوشروان بنفسه عن قيام مذهب الاسماعيلية (١)

وليست قيمة هذه البيانات في انها تقرير من وزير عاصر حسن الصباح وزامله في المدرسة ، ولكنها تضم الى هذه القيمة تصويراً واضحاً لحسن الصباح يكشفنا على تعليمه وعلى ناحية من أيام شبابه ، وفي الحق ان الوزير انوشروان لم يذكر اسم حسن الصباح صريحاً ، إلا أنه أراد به فعبّر عنه بكلمات لا تميز غير شخصية حسن نفسه ، وليس من العسير عليك ان تميز شخصية حسن مما وصف انوشروان ، فهو يقول « لقد وقع امر يدعو الى العجب في سياق الأحداث التي حدثت ، اذ ان أشخاصاً كانوا معنا في المدرسة ونالوا ما أخذنا من حظ وفير في العلم والدين والفقه والآداب ، قد اختلفوا عنا مشرباً ومذهباً ، وكان من بينهم صاحب (ري) (٢) الذي تنقل في الأسفار والذي اتخذ النسخ والكتابة حرفة له ، ونفذ أعماله بقدرة ونجاح ، ثم انبرى في ثورة وما زال بها حتى استولى على قلعة حصينة ، ثم ارتكب أعمال الارهاب والتخريب مع أتباعه ، وما زالت مذاهبهم خافية عن الناس حتى افتضح امرهم وشاع (٣) .

(١) وصف الوزير انوشروان القطائع التي ارتكبها حسن الصباح وأتباعه ، والجرائم التي نهض عليها نظام مذهب الاسماعيلية الارهابي ، وكيف قام حكم الارهاب الذي أخذوا به أهالي البلاد والموك . وقرر انوشروان أن أول رجل عظيم ذهب ضحيتهم هو الوزير نظام الملك حيث قتل سنة ١٠٩٢ م بعد موت ملك شاه بشهر واحد (برون ط هوتزما ص ٦٧) ورس ط ١٩٠٢ ص ٣٣ لندن

(٢) جاء بكتاب جامع التواريخ ان حسن الصباح ذهب من الري الى نظام الملك ليعطى بمجته وذكّر الوزير بوعده فقال له نظام الملك « لك الخيار بين ولاية الري واصفهان » فلم يفتح حسن بذلك ولم يرض به اذ كان يتوقع أن يشاركه الوزارة . فقال له نظام الملك فلتلزم خدمة السلطان

(٣) البنداري ط هوتزما ص ٦٧ ، ورس ط لندن سنة ١٩٠٢ ص ٣٢

باب المراسلة والمنظرة

تحقيق من عائشة

لأحمد محمد شاكر

يقول صاحب كتاب « الصديقة بنت الصديق » (١):

« كانت روايات من أقوال الاقدمين تذكر ان النبي عليه السلام خطب السيدة عائشة وهي في السادسة وبنى بها وهي في التاسعة . وكان هذا مجالا لاعداء الاسلام وأعداء بني الاسلام يبدئون فيه ويعيدون ، ويجدون المستمعين والمتشككين حتى بين المسلمين . فهذا مجال لاطالة الوقوف يعبره أمثال هذا الناقد الخافد مهرولين ويجهلون ما وراءه من الزور الاثيم والبهتان المبين . وهنا وقفنا لنثبت بالمقل والنقل أن محمداً عليه السلام لم يبن بالسيدة عائشة إلا وهي في السن الصالحة للزواج بين بنات الجزيرة العربية ، فأثبتناه على رغم الاقاويل والسنين » (الرسالة ٥٥١ في ٢٤ يناير سنة ١٩٤٤)

وهذه الروايات التي تجهل ما وراءها « من الزور الاثيم والبهتان المبين » (١) هي الروايات الصحيحة التي لا شك في صحة إسنادها والثقة برواتها عن من عائشة حين زواج رسول الله بها ، وأنه عقد عليها وستسما ست سنووات ، وبنى بها وسنهما تسع سنووات ، وهي الاحاديث التي رواها البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجه والدارمي وأحمد بن حنبل وابن سعد كلهم من حديث عائشة بالاسانيد الثابتة الصحاح ، وبالالفاظ الواضحة التي لا تحتمل تأويل المتأولين . وللاعب العابثين ، والتي رواها ابن ماجه من حديث عبدالله بن مسعود وابن سعد من حديث أبي عبيدة بن عبدالله بن مسعود ومصعب بن سعد بن أبي وقاص وابن شهاب الزهري وحبيب مولى عروة بن الزبير . كل هؤلاء الأئمة الثقات الأثبات الذين يروون ويصدقون ما يروون ، هم عنده مثلنا « ما يجهلون » ، وراءه من الزور الاثيم والبهتان المبين » ويدركه هو وحده بما أوتي من جرأة وتهجم ، وبما فقد من بحث وتحقيق ، فهو يثبت وينفي « على رغم الاقاويل والسنين » فهو يلعب بالروايات ويحرفها كيف شاء ثم

(١) انظر نقد بشر فارس لهذا الكتاب في المقتطف ، فبراير ١٩٤٤ ، باب « التعريف والتعقيب »

يقول : « ولهذا ترجح أنها كانت بين الثانية عشرة والخامسة عشرة يوم زفت إليه » (كتاب الصديقة ص ٦٥) ثم يفسى ما اجترحت يدها فيقول (ص ٧٨) :

« فعائشة البكر التي لم يتزوج النبي بكراً غيرها قد مات عنها عليه السلام وهي دون العشرين »

« فهنا انفلات من ذلك الجزم » كما قال الدكتور بشر فارس في نقده ص ١٩٣

وهو يبني تحقيقه هذا العجيب على مقدماتٍ اخترع بعضها اختراعاً ، وحرّف بعضها تحريفاً منكراً ، بالتحوير أو التأويل ، ثم يسوق ذلك كله مساق الحقائق التاريخية الثابتة ، شأن الرواة الثقات . ثم لا يذكر شيئاً من الحقائق التي تخالف هواه . فهو يقول :

« وتختلف الأقوال في سن السيدة عائشة يوم زفت الى النبي عليه السلام في السنة الثانية من الهجرة ، فيحسبها بعضهم تسعاً ويرفعها بعضهم فوق ذلك بضع سنوات » (الصديقة ص ٦٤)

أما زعمه أن بعضهم يرفعها فوق ذلك بضع سنوات فانه قول مبتكر ، لم يقله أحد من العلماء ، ولم يرد في رواية من الروايات ، وإنما يريد أن يزيد به ويصل الى بغيته .

وأما جزمه بأن الزفاف كان في السنة الثانية من الهجرة ، فانه اعتمد فيه — فيما أرى — على قول الحافظ النووي في تهذيب الامماء (ج ٢ ص ٣٥١) : « وبني بها بعد الهجرة بالمدينة بعد منصرفه من بدر في شوال سنة اثنتين بفت تسع سنين ، وقيل بني بها بعد الهجرة بسبعة أشهر وهو ضعيف ، وقد أوضحتُ ضعفه في أول شرح صحيح البخاري » هكذا يقول النووي ولكنه نسي ، فانه لم يوضح دليل ضعفه في أول شرحه للبخاري عند شرح الحديث الثاني من الصحيح ، في نسختنا المخطوطة عن أصلها العتيق . وهذا الترجيح من النووي في تأريخ الزفاف خطأ صرف . والقول الذي ضَعَفَه بغير دليل هو الصحيح الراجح . قال الحافظ بن حجر في فتح الباري (ج ٧ ص ١٧٦ من طبعة بولاق) : « وإذا ثبت أنه بُني بها في شوال من السنة الاولى من الهجرة قوي قول من قال انه دخل بها بعد الهجرة بسبعة أشهر ، وقد وهَّاه النووي في تهذيبه ، وليس بواهِ إذا عددناه من ربيع الأول ، وجزّمه بأن دخوله بها كان في السنة الثانية يخالف ما تَبَيَّنَ » . والدليل على خطأ ما رجحه النووي حديث عائشة نفسها في طبقات ابن سعد (ج ٨ ص ٣٩ — ٤٠) : « تزوجني رسول الله صلى الله عليه وسلم في شوال سنة عشر من النبوة ، قبل الهجرة لثلاث سنين ، وأنا ابنة ست سنين ، وهاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقدم المدينة يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول ، وأعرس بي في شوال ، على رأس ثمانية أشهر من المهاجرة ، وكنت يوم دخل بي ابنة تسع سنين »

فالثابت من قول عائشة نفسها أن رسول الله بنى بها في السنة الأولى من الهجرة ، في شوال بعد مهاجره في ربيع الأول ، بسبعة أشهر على رأس الثامن . وترجيح النووي أن ذلك كان بعد غزوة بدر في السنة الثانية ، ترجيح بغير دليل ، والأدلة الثابتة تنفيه

فحكاية الكاتب الجريء قولاً مرجوحاً لا دليل عليه ، وإتيانه به في صيغة توهم أنه القول الواحد الذي لم يرو غيره ، كأنه قضية مساهمة ، إذ يقول : « وتختلف الأقوال في من السيدة عائشة يوم زفت إلى النبي عليه السلام في السنة الثانية من الهجرة » . هذا الصنيع منه لن يكون من الأمانة العلمية في شيء

ومن هذا النوع من الأمانة قوله (ص ٦٤) : « فقد جاء في بعض المواضع من طبقات ابن سعد أنها خطبت وهي في التاسعة أو السابعة » . والذي في ابن سعد (ج ٨ ص ٤٢) : « أخبرنا محمد بن حميد العبدى حدثنا معمر عن الزهري وهشام بن عروة قالا : نكح النبي صلى الله عليه وسلم عائشة وهي ابنة تسع سنوات أو سبع » . وأنا أوقن أن الكاتب الجريء أعرف باللغة العربية من أن يحفى عليه الفرق بين معنى « نكح » وبين معنى « خطب » وأنه لن يغير لفظ إحداها إلى لفظ الأخرى عن جهل بهما ، وإنما يفعل ذاك عن عمد وهو يعرف ما يفعل

ثم ما باله يدع الروايات الصحيحة المتواترة ، ولا يستند إلا إلى الروايات الشاذة أو المنكرة التي تخالف كل رواية صحيحة ؟ . أمامه الروايات الصحيحة في كتاب ابن سعد وغيره عن الزهري وعن هشام بن عروة وعن غيرها أن رسول الله تزوج عائشة وهي بنت ست سنين ، وفي بعضها « سبع سنين » ودخل بها وهي بنت تسع سنين . فبال هذه الرواية التي لا شك أن راويها أخطأ فيها أو اختصر فأخطأ من روى عنه فهم اختصاره . ولكن الكاتب الجريء يريد شيئاً معيناً ، فلا عليه أن يتخير من الروايات اضعفها ، ولا عليه أن يحرف ألفاظها إلى ما يشاء ، لتصل به إلى ما يريد ! ثم هو يريد أن يصور للقارئ أن الذي كان في السنة العاشرة من البعثة قبل الهجرة بثلاث سنوات هو خطبة فقط ، يوم أنه لم يكن هناك زواج ، وإن لم يصرح بنفيه ، فيقول (ص ٦٣) :

« وجرى الخطبة بعد ذلك في مجراها الذي انتهى بالزواج بعد سنوات » ويقول (ص ٦٤) : « فتمت الخطبة في شوال سنة عشر من الدعوة قبل الهجرة بثلاث سنوات »

ويحرف رواية ابن سعد من كلمة « نكح » إلى كلمة « خطبت » ويقول (ص ٦٥) :

« وان خطبة النبي كانت في نحو السنة العاشرة للدعوة »

ويقول في (الرسالة) في الكلمة التي اقتبسناها أول مقالنا هذا :

« كانت روايات من روايات الاقدمين تذكر أن النبي عليه السلام خطب السيدة عائشة وهي في السادسة الخ وهو يعرف كما يعرف المسلمون جميعاً ، عالمهم وجاهلهم ، ذكيتهم وغبيتهم ، أن الخطبة عند المسلمين غير الزواج ، وأنهما غير الزفاف والدخول ! ولكن هكذا يكون الكاتب الجريء وأعجب من هذا كله ، وأشدُّ جرأةً على الحق ، وأشدُّ تهجماً على سيرة رسول الله ، وأسوأ أثراً على الجريء فيما قال وكتب ، وفيما يقول أو يكتب ، أن يقول (ص ٦٤) :

« فقد جاء في بعض المواضع من طبقات ابن سعد أنها خطبت وهي في التاسعة أو السابعة ، ولم يتم الزفاف كما هو معلوم إلا بعد فترة بلغت خمس سنوات في أشهر الاقوال ! »

أما القول الذي يصفه بأنه « أشهر الاقوال » فانه لم يقله أحد قط ، ولم يُروَ في كتاب من كتب السنة أو السيرة أو التاريخ ، هذا الى محاولة تصوير هذه الفترة بأنها فترة خطبة لا فترة زواج قبل البناء ، ثم هو يصرُّ على ما ادعى اصراراً عجيباً لم يأت عليه ببرهان . فيقول ما نقلنا من قبل : « وجرت الخطبة بعد ذلك في مجراها الذي انتهى بالزواج بعد سنوات »

ويقول (ص ٦٤ — ٦٥) :

« إذ لا يعقل أنها — يعني خولة بنت حكيم — تشفى من حالة الوحدة التي دعته الى اقتراح الزواج على النبي ، وهي تريد له أن يبقى في تلك الحالة أربع سنوات أو خمس سنوات أخرى ! »

ومن أين يأتي بالخمس السنوات ويدعي أنها أشهر الأقوال ؟ والأقوال كلها متضاربة على أنها ثلاث سنوات والشهور محدودة فيها بيئة ؟ يتمسك بالروايات الصحيحة التي فيها أن الزواج كان قبل الهجرة بثلاث سنين ، ثم يحزم بالرواية الضعيفة أن الزفاف كان في السنة الثانية من الهجرة ، ثم لا يجد مناصاً من قواعد الحساب أن الثنتين إذا أُضيفتا الى الثلاث كان الجميع خمساً من غير تردد . فقد سلم له قوله ووصل الى ما أراد . ولكنه لم يأت أو تناسى أن الروايات كلها تذكر أن بين الزواج والزفاف ثلاث سنين فقط ، وأنها حددت بالشهور من شوال الى شوال ، وأنهم كثيراً ما يذكرون عدد السنين ويحبرون فيها الكسور ، فتقول عائشة ما روينا من قبل : إن رسول الله تزوجها قبل الهجرة بثلاث سنين ، وهي تريد سنتين وكسراً إذ حددت التاريخ بالشهور : أن الزواج كان في شوال سنة عشر من النبوة ، وأنه قدم المدينة في ١٢ ربيع الأول ، وهي السنة الأولى من الهجرة ، وأنه دخل بها في شوال من السنة نفسها على رأس ثمانية أشهر ، وأنه تزوجها وهي بنت ست سنين ودخل بها وهي بنت تسع . فهذا حسابها صحيحاً من شوال قبل الهجرة بثلاث الى شوال في

سنة الهجرة ، ثلاث سنين كوامل ، لا تحتمل زياداً ولا تحويراً ، فأين هذا الحق من ذلك الصنيع ؟

ثم يزداد الكاتب الجريء جرأة ، فيذهب يحتمل حيلة غريبة في التأويل ، فيفتعلها افتعالاً ، يزعم أنه ينصر رأيه ، ويقيم حججه ، فيقول (ص ٦٥) :

« ويؤيد هذا الترجيح من غير هذا الجانب أن السيدة عائشة كانت مخطوبة قبل خطبتها الى النبي ، وأن خطبة النبي كانت في نحو السنة العاشرة للدعوة . . فاما أن تكون قد خطبت لجبير بن مطعم لانها بلغت سن الخطبة وهي في قرابه التاسعة أو العاشرة ، وبعيد جداً أن تنعقد الخطبة (١) على هذا التقدير مع انتراق الدين بين الاسرتين . وإما أن تكون قد وعدت لخطيبها وهي وليدة صغيرة كما يتفق أحياناً بين الاسر المتألفة ، وحيث أن يكون أبو بكر مسلماً عند ذلك ، ويستبعد جداً أن يعد بها فتى على دين الجاهلية قبل أن تتفق الاسرتان على الاسلام . فاذا كان أبو بكر رضي الله عنه قد وعد بها ذلك الوعد قبل اسلامه ، فعنى ذلك أنها ولدت قبل الدعوة وكانت تناهز العاشرة يوم جرى حديث زواجها وخطبها النبي عليه السلام »

هكذا ينقل الكاتب الجريء ويتأول . واحفظوا عليه قبل كل شيء إصراره على أن الذي كان في السنة العاشرة للدعوة خطبة لا زواج ، وإن لم ينفر الزواج صراحة ولكنه يوقعه في نفس القارئ ويقنعه به إقناعاً من لحن القول « يوم جرى حديث زواجها وخطبها النبي عليه السلام »

والقصة التي يشير اليها ويحاول أن يصبغها بصبغة رأيه ، هي قصة مطولة في زواج النبي صلى الله عليه وسلم بسودة بنت زمعة وبعاثشة رضي الله عنهما . رواها أحمد بن حنبل في مسنده (ج ٦ ص ٢١٠ - ٢١١) ونقلها عنه الحافظ ابن كثير في تاريخه (البيداء والنهاية ج ٣ ص ١٣١ - ١٣٣) وأشار الى رواية مثلها عند البيهقي مؤيدة لاسنادها . وهذا الحديث فيه قصة وعبد أبي بكر بابنته للمطعم بن عدي على ابنه جبير ، وخطبة النبي إياها وزواجه بها ، ثم زفافها اليه بعد قدومهم المدينة . وهذا موضع الشاهد منه : « قالت أم رومان - زوج أبي بكر خلوة بنت حكيم التي كان لها فضل السعي في هذا الزواج - : إن مطعم ابن عدي قد ذكرها على ابنه ، والله ما وعد أبو بكر وعداً قط فأخلفه ، فدخل أبو بكر على مطعم بن عدي وعنده امرأته أم الصبي . فقالت : يا ابن أبي قحافة لعلك مصيبي صاحبنا تدخله في دينك الذي أنت عليه إن تزوج اليك ؟ فقال أبو بكر للمطعم بن عدي : أقول هذه تقول ؟ قال : إنها تقول ذلك . فخرج من عنده وقد أذهب الله ما كان في نفسه من عداوته

(١) المعروف في شرعة المسلمين أنه الخطبة ليست عقداً ، ولكن الكاتب الجريء يريد شيئاً قد كشفنا عنه

التي وعده. فرجع فقال لحولة : ادعي لي رسول الله، فدعته فزوجه إياه ، وعائشة يومئذ بنت ست سنين قالت عائشة فقدمنا المدينة فنزلنا في بني الحارث بن الخزرج في السنع . قالت : فجاء رسول الله فدخل بيتنا ، واجتمع اليه رجال من الأنصار ونساء ، فجاءتني أمي وإني لفي أرجوحة بين عذقين ترجح بي ، فازلتني من الأرجوحة ، ولي جُميمة ففرقتها ومسحت وجهي بشيء من ماء ، ثم أقبلت تقودني حتى وقفت بي عند الباب وإني لأنهج ، حتى مسكن من نفسي ، ثم دخلت بي ، فاذا رسول الله جالس على سرير في بيتنا وعنده رجال ونساء من الأنصار ، فأجلستني في حجره ، ثم قالت : هؤلاء أهلك فبارك الله لك فيهم وبارك لهم فيك . فوثب الرجال والنساء فخرجوا ، وبني رسول الله في بيتنا ، ما نُسحرت علي جزور ، ولا ذبحت علي شاة ... وأنا يومئذ بنت تسع سنين »

هذه هي القصة التي يحاورها الكاتب الجري ويداورها . ويلعب بها ويعبث ، يستنبط منها . وما رأينا فيما قرأنا أشد جرأة على الحق ، ولا إيغالا في الباطل ، ولا لعبا بالالفاظ والمعاني ، ولا تحريفاً للكلم عن مواضعه ، مما صنع هذا الرجل

حديث صريح اللفظ ، بَيِّن المعنى ، يَقْصِرُهُ هذا الكاتب الجري على أن يدل على ضد لفظه الصريح ومعناه الواضح ، فلا يأتي بالحديث على وجهه ، بل يصرفه على لفظ من عنده ، يُخَدِّع به القارئون ، فلا يدركون ما وراءه . ثم يبني استنباطه على غير علم بعادات العرب ، وعلى غير معرفة بأحكام الشرع . فهو يقول ما حكينا من قوله ، ويصر عليه إصراراً منكراً فيما قرأنا له الآن (في العدد ٥٥٩) من الرسالة المؤرخ يوم الاثنين ٢٠ مارس إذ يقول :

« وبحسبنا أن نعلم أن عائشة خطبت قبل خطبتها للنبي ، وأن الذي خطبت له كان من المشركين ، بحسبنا أن نعلم هذا لنعلم أنها خطبت قبل الدعوة الإسلامية وأن أبا بكر لن يزوج بنته بعد الدعوة الإسلامية لرجل يكفر بدينه ، وهو البرهان الراجح على أنها حين خطبت لمحمد عليه السلام وبني بها بعد الخطبة بسنوات قد كانت في سن صالحة للزواج »

وليحفظ عليه القارئ أيضاً أنه فعل هنا ما فعل من قبل ، فلم يأت بذكر لعقد الزواج بين رسول الله وبين عائشة ، بل ساق القول من الخطبة الى البناء ، كما نهينا عليه آنفاً ، إذ هو لا يريد أن يعترف بعقد عَقْدٍ النكاح في السن المبكرة . ثم نعود الى ما نحن بسبيله :

بني هذا الكاتب الجري كل دعواه في هذا الحديث ، وكل استنباطه منه على شيء واحد ، يستبعده جداً في كتابه (ص ٢٦٥) وينفيه نفياً باتاً في مقاله (الرسالة ٥٥٩) وهو

أن أبا بكر « لن يزوج بنته بعد الدعوة الاسلامية لرجل يكفر بدينه ». وهو يخطئ في هذا جداً ، فان لفظ الحديث الذي سقناه يدل على أن أبا بكر كان عند وعده للمطعم بن عدي إن استمسك به المطعم ، وأنه ذهب اليه لعله يجد من وعده مخرجاً ، ففجأته أم الصبي بخشيته أن يؤثر على ابنها إن هو تزوج عائشة فيدخله في دينه الذي هو عليه ، وهو الاسلام . فلم يجد أبو بكر من اختلاف الدين أو تخوف أم الصبي مخرجاً من عذته ، فسأل الرجل ، وهو ولي ابنه الصبي في التزويج ، ليرى أيقر زوجه على قولها ، فلما وافقها الرجل وجد أبو بكر المخرج من وعده « فخرج من عنده وقد أذهب الله ما كان في نفسه من عذته التي وعد ». وإنما وقع الكاتب الجريء في هذا الخطأ وأوهمه ، معرفته أن زواج المسلمة بغير المسلم باطل لا ينعقد ، وأن المسلم إذا ارتد عن الاسلام فسخ عقد زواجه بزوجه المسلمة ، وأن غير المسلمة إذا أسلمت وكانت ذات زوج عُرض على زوجها الاسلام ، فان أبي أن يسلم فترق بينهما . وهذه أحكام يعرفها العامة والخاصة ، فبني عليها أنه « بعيد جداً أن تنعقد الخطبة مع افتراق الدين » وأنه « يستبعد جداً أن يعد بها فتى على دين الجاهلية قبل أن تتفق الاسرتان على الاسلام » وأنها « خطبت قبل الدعوة الاسلامية ، وأن أبا بكر لن يزوج بنته بعد الدعوة الاسلامية لرجل يكفر بدينه » . وليكنه لم يعلم أول هذا التحريم لزواج غير المسلم بالمسلمة ، ولم يدرك مبدأ أمره ، أكان في أول الاسلام حتى يطبق في هذه الواقعة في وقتها ، ام هو تشريع تأخر عنها ، فلا يطبق عليها ، ولا يستدل به فيها

ألا فليعلم الكاتب الجريء أن زواج المسلمة بالمشرك كان جائزاً وواقعاً في أول الاسلام ، على عادة القبائل والاسر من التزواج والمصاهرة ، وأنه لم يحرمه الله تعالى الا بعد صلح الحديبية ، في أواخر السنة السادسة من الهجرة ، لما نزل قوله تعالى في سورة الممتحنة (لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن) . قال الحافظ ابن كثير في تفسيره (ج ٨ ص ٣٢٣ طبعة المنار) : « هذه الآية هي التي حرمت المسلمات على المشركين ، وقد كان جائزاً في ابتداء الاسلام أن يتزوج المشرك المؤمنة ، ولهذا كان أبو العاص بن الربيع زوج ابنة النبي صلى الله عليه وسلم زينب رضي الله عنها ، وقد كانت مسلمة وهو على دين قومه ، فلما وقع في الأسارى يوم بدر بعثت امرأته زينب في فدائه بقلادة لها فأطلقه رسول الله على أن يبعث إليه ابنته ، فوفى له بذلك ... وبعثها مع زيد بن حارثة ، فأقامت بالمدينة من بعد وقعة بدر ، وكانت سنة اثنتين ، الى أن أسلم زوجها أبو العاص بن الربيع سنة ثمان فردها عليه » . وليس بعد هذا البيان بيان . وما إخال أن للكاتب الجريء حيلة في أن يجادل

فيه ، وهو ينتقض كل ما بنى عليه استنباطه أو تحريفه
وليعلم الكتاب الجري أيضاً أن كل ما ينسب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم
من « قول أو فعل أو تقرير » هو عند المسلمين من « الحديث » وأنه لا يجوز لأحد أن
ينسب إلى الرسول شيئاً من هذا إلا عن ثقة وثبت ، وبإسناد صحيح ، على النحو الذي قام به
أئمة الحديث ووضعوا له القواعد والقيود ، في فن واسع المدى ، لعله قد سمع به ، وأنه لا يعذر
أحد في التحدث عن رسول الله بغير ثبوت ، لقوله عليه السلام : « من حدث عني بحديث
يُرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين » وأن العمد إلى التحدث عنه بما ليس بصحيح من
أعظم الآثام ، لقوله صلى الله عليه وسلم : « من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من
النار » . فليعد نظراً إلى ما قدمت يداه في هذه المسئلة بعينها ، ويجد أنه أنكر الصحيح
الثابت الذي لا خلاف فيه عند المحدثين وغيرهم ، أن رسول الله تزوج عائشة قبل الهجرة
وهي في السادسة أو السابعة من عمرها ودخل بها في المدينة بعد ثلاث سنين من الزواج ،
وأنه لكي يصل إلى تأييد إنكاره ، وتأيد دعواه أنها كانت بين الثانية عشرة والخامسة
عشرة يوم زفت إلى النبي ، اضطُرَّ إلى تحريف ألفاظ الأحاديث ، وإلى تحريف معناها ، وإلى
سوق الكلام من الخطبة إلى الزفاف ، خشية أن يذكر عقد الزواج قبل الهجرة فيكون حجة
على نفي ما أراد إثباته وإثبات ما أراد نفيه ، حتى لقد كاد يزلُّ به قلمه إذ يقول :

« وجرت الخطبة بعد ذلك في مجراها الذي انتهى بالزواج بعد سنوات » (كتاب الصديقة ص ٦٣)

فإنه يوهم القارئ ، وإن لم يصرح الكاتب ، أن الذي كان في مكة قبل الهجرة لم يكن
فيه زواج ، وأنه انتهى بالزواج بعد سنوات ، يعني في المدينة . ولكنه لم يستطع أن يكون
جريئاً كما يريد ، فخشي أن يدعي أن هناك زواجا كان بالمدينة ، لئلا يكشف للناس عن
فساد قوله ، ووهني أدلته . وإن هو أنكر علينا هذا فليقل لنا كلمة صريحة : متى تزوج
رسول الله عائشة ، أعني العقد لا الخطبة أكان ذلك قبل الهجرة حين خطبها على أبيها ،
أو كان بعد الهجرة حين بنى بها ؟ ويجد أنه حرّف عن عمد كلمة « النكاح » التي هي
الزواج إلى كلمة « الخطبة » . وأنه جاء إلى أبين حديث وأصرحه في الدلالة على سن
عائشة ، وهو القصة التي فيها سعي خولة بنت حكيم ، فخرّفه بالتأويل المنكر ، ليستدل به
على ضد ما يدل عليه لفظه الصريح ، أنها تزوجت بنت ست سنين وزفت بنت تسع ، وأن
أما أخذتها يوم الزفاف من أرجوحة كانت تلعب بها بين النخيل . ويجد أنه ادّعى أن
هناك من يرفع سن عائشة فوق التسع بضع سنوات ، ولم يقل ذلك أحد . وأنه ادّعى أن

الزفاف لم يتم إلا بعد فترة بلغت خمس سنوات في أشهر الأقوال ، ولم يوجد قط قول بهذا ، فضلاً عن أن يكون أشهر الأقوال . ويجد أنه كان يجهل حكم الزواج بين المسلمة والمشرک في صدر الاسلام ، وأنه تحدث فيه بغير علم . ويجد أنه فوق هذا كله جح به قلبه ، فوصف هذه السنن الصحاح بأنها « من الزور الانيم والبهتان المبين » حين زعم أننا نجعل ما وراء روايات الأقدمين . وليت شعري بم يصف عمله في التحريف والتحوير والقول على رسول الله بما لم يأت عليه ببرهان ، ونخر بأنه أثبتته « على رغم الاقاويل والسنين » ؟

ثم ليعلم أيضاً أن السنة النبوية « من قول وعمل وتقرير » مصدر عظيم للتشريع الاسلامي ، وهي المصدر الثاني بعد القرآن ، وهي المفسرة له المبينة ، كما قال الله لنبيه : (لتبين للناس ما نزل اليهم) وأن هذه الأحاديث التي أنكرها بتحريفه وتأويله ، وأثبت ضد ما ثبت فيها « على رغم الاقاويل والسنين » فيها دلالة على أحكام شرعية خطيرة الأثر ، منها جواز تزويج الصغيرة للكبير ، ومنها أن الصغيرة بي أمر تزويجها وليها إذ هي لا تملك أمر نفسها ، ومنها أن البناء بالصغيرة جائز حلال ، الى غير ذلك من الأحكام ، وأن إنكاره ما فيها إنكار لكل ما يستنبط منها بالطريق العلمي في الاستنباط ، ونسبة شيء الى رسول الله لم يثبت بالطريق الصحيح للاثبات ، بل ثبت ضده ونقيضه . فان لم يدرك هذا كله فقد أبلغناه ، وما علينا من وزره من شيء

وبعد : فما الذي دفع به الى هذه المضايق ، وأورده هذه الموارد وأقحمه ؟ يظن أنه يسوغ عمله إذ يقول : « ذلك هو التقدير الراجح الذي ينفي ما تفوهه المستشرقون على النبي بصدد زواج مائسة في سن الطفولة الباكورة » (كتاب الصديقة ص ٦٦) ويقول : « وإنما عانا أن نبطل قول القادحين في النبي أنه عليه السلام بنى بنت صغيرة لا تصلح للزواج ، وقد أبطلنا ذلك بالإدلة التي لا نكرها هنا » (الرسالة في العدد ٥٥٩) . هذا عذر الظاهر لنا من كلامه . وليس لنا أن نخوض فيما وراءه

ولكن أهذا هكذا ؟ قال مستشرق ، أو طعن مبشر ، أو قدح ملحد ، فقال أحدهم ما شاء من قدح في عمل بعينه ، أفترى أنت هذا العمل معيباً يجب التبرؤ منه ، أم تراه جائزاً لا شيء فيه ولا غبار على من يعمله ، وأن العائب إنما ينظر اليه من ناحية غير صحيحة ، وبعين مغرضة ليست بريئة ؟ أفلا ترى أنك إذا نفيت هذا العمل وأنكرته فقد رأيته معيباً كما رأى العائب ، وقادحاً كما فعل القادح ، فما حاجتك الى التستر وراءه ، وماذا يمنعك أن تصرح بأن هذا العمل غير جائز ، وأنت توافق في استنكاره من سبقك من المستشرقين ؟

هذا هو الطريق المنطقي للبحث العلمي، العالم لا يدافع عن نظرية علمية ولا ينصرها إلا إذا رآها رأيه والتزمها قوله. ثم ألم يكن الأجدرُ بالكتاب الجريء أن يصنع ما يصنع الرجال، فيصرح بانكار كل الأحاديث التي فيها سن عائشة وينقدها على طريقة المحدثين فيسبين ضعف أسانيدها وبطلان روايتها إن استطاع، فذلك خير له من تأويلها وتحريفها والتزييد فيها، ثم مناقضته نفسه بالاحتجاج ببعض ألفاظها على أسلوب عائشة المرسل السهل الجزل الفصيح (ص ٥٧ - ٥٨) كما استدرك عليه الدكتور بشر في نقد كتابه وبعد مرة أخرى: فإن شريعتنا شريعة الاسلام، أباحت تزويج البنات الصغار، وجعلت تزويجهن للأولياء، بدليل زواج النبي صلى الله عليه وسلم بعائشة وبنائه بها وهي دون العاشرة، وبدليل قول الله تعالى في سورة الطلاق (واللأني يئسن من المحيض من نسائكم إن ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر واللأني لم يحضن). فاللأني لم يحضن هن الصغيرات اللاتي لم يأتسن الحيض وهن دون البلوغ، عليهن عدة ثلاثة أشهر إذا طلقن، ولا يكون طلاق وعدة إلا بعد زواج، أليس كذلك؟ فمن رضي هذه الشريعة لم ينكر ولم يعبا بقول العائنين المغرضين، ومن أبى (أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين)

اصم محمد شاكر

من آثار الخزانة العربية الحديثة:

لأبرهيم عبد القادر المازني

أبرهيم الثاني

لمحمود تيمور

أبو شوشة والموكب (بالفصحى)

لأنستاس ماري الكرملي

أغلاط اللغويين الأقدمين

لأحمد محمد شاكر

رسالة الامام الشافعي

لفؤاد صروف

روزفلت

لمحمد يوسف موسى

فلسفة الأخلاق

لزي محمد حسن

الفنون الإيرانية في العصر الاسلامي

التعريف والتتقيب

نستحدث هذا الباب ونبسط فيه إرادة أن نتدبر
ما يتصل بقضايا الفكر وما يدخل في شؤون
الدوق ، فنجريه إلى غايتين : إحداهما مراجعة
بعض ما يخرج في العلم والأدب والفن كتابة
أو أداء ، والآخرى نشر ما الطوى من
الضنائن المخطوطة أو المهملة ، ومقصودنا أن
يصبح هذا الباب مرجعاً للمستطلع السائل
وممرضاً للمستبصر الراكن . هذا ويشترك في
إنشاء الباب نفر من أهل النظر وأعداء الهوى

بشر فارس

المشتمل

١ - المسائل

النقد والعلم

قلم بشر فارس

٢ - الكتب

« رسالة الغفران »

« القاهرة »

« الملك الضمليل »

« الواحة »

كتب ظهرت

نقد بقلم ابراهيم عبد القادر المازني

- زكي محمد حسن

- محمود تيمور

- حسن كامل الصيرفي

٣ - المخطوطات

« درج بردي مصري »

قلم و. ج. و. د. W. G. Waddell

نقله من الانجليزية وهيب كامل

١ - المسائل

النقد والعلم

قاعة استطاعت كأنها تريد أن تدور الطرف على البعد ، ثم وضيت ببعض الظلمة كأنها تبغي أن تبعث الوجدان على التأمل ... كتبنا في مدرّج من مدرّجات الشربون فننظر أستاذاً لنا نتلقى عنه صناعة الأدب وثقافته

دخل ذلك الشيخ ، شيخنا ، فقال :

اليوم أبتدىء حيث انتهيت . فأكبر الظن أنكم نظرت في التأليف التي دلتكم عليها من أشهر ، أريد التأليف التي تتصل بنظريات النقد مباشرة أو مقاربة ، نحو « كتاب الشعر » لأرسطو و « فن الشعر » لهوراس الروماني ورسالة « الاعجاز » de Sublimitate المنسوبة إلى لوجيئس اليوناني^(١) ونحو ما ورد تحت أقلام بن جونسون ودريدن الانجليزيين ، وموتشي الفرنسي ، وكنت الألماني ، الى جنب من تناولوا أحكام النقد في القرنين الماضيين ، وأظنكم تمهلتم بين يدي مازوني الايطالي ، فعلمتم ان كل عمل من اعمال الفن يحمل في طياته معالم الحكم فيه ، فيسأل الناقد : « ما غرض المؤلف ؟ أم عقول هو ؟ أو يبلّغه المؤلف ؟ » ثم تبين لكم ان النقد قائم على اصول وقواعد تشترك فيها الذاتية والموضوعية ، وان هذه الاصول والقواعد تارة مشتقة من طبيعة الفن نفسه ، وأخرى راجعة الى مزاج الناقد وذوقه وذكائه وحسه وخياله والى مبلغ انعطافه

لست لهذا اعرض اليوم ، ولست بمرشدكم كيف تشتقون تلك الاحكام ، ولست بمبصركم طرائق تهذيب المزاج ، وارهاف الذوق وغيره من الادوات الذاتية . فأنتم على بصري بكل ذلك ، او في استطاعتكم ان تكونوا كذلك اذا انتم طلبتم في هذه الجامعة مراحل الأدب وخصائص الفن ومطالب الفلسفة

اني أريد ان انبهكم الى ان النقد منذ منتصف القرن التاسع عشر أخذ في الولوج في فاحية العلم . وليس معنى هذا انه طادل عن نعومة الذوق الى خشونة المذهب . ولكن

المقصود من ذلك أنه فن ينظم حيث يجب التنظيم ويقيّد حيث يحسن التقييد . فما هو بالهائم
هيّمان البدوات ولا هو بالشارد شرود السواخ

وقليل من التاريخ هاهنا يقيّد ويوطى :

مأقصر المردّ على ترقى النقد في فرنسا ، إذ فيها مال أول ميله نحو العلم ثم ثبت في
جانبه . وليتكم تطالعون ما ألفه سنسبيري في الإنجليزية في تاريخ النقد والذوق الادبي
في اوروبا ^(١) فتلحوا ما كان من شأن النقد في غير فرنسا . وفي هذه اللغة ايضاً كتاب
A. Morize في « مسائل التاريخ الادبي ومناهجه » خرج في بُسْتُن سنة ١٩٢٢ . ثم
لا بد لكم من التوسع في ما انا قائله ، فاطلبوا لذلك كتاب G. Rudler في « مسالك
النقد وتاريخ الادب في الادب الفرنسي الحديث » وهو مطبوع سنة ١٩٢٣ في أكسفرّد ،
وفي هذا الكتاب ما يرجعكم الى مؤلفات النقاد انفسهم ، فاذهبوا اليها حتى ينسبط لكم
ما انا مجمل هنا

تمهل شيخنا شيئاً حتى نفرغ من تدوين المراجع ، ثم قال :

سنة ١٨٨٨ اخرج هنريكا Hennequin كتابه « النقد العالمي » ، وسنة ١٩٠٠
اخرج رنار Renard « المنهج العلمي لتاريخ الادب » . وذانكم المؤلفان غاية محاولات
مبقت . فمنذ فجر القرن وصلت مدام دي ستال Mme de Staël الادب بأوضاع المجتمع
ومعتقداته . وتلاها فيلما Villemain يستشف روح الأمة من بيان الكتاب ، ويتعقب
الاثر الانجليزي في رسائل القرن الثامن عشر في فرنسا . ثم جاء سانت بوف Sainte-Beuve
وأراد — لما كان يخرج أحاديث « الاثنين » — ان يصنع « التاريخ الطبيعي للعقول » ، فجعل
يتعرف طباع الادباء من دواوينهم ثم يتصفح تلك الطباع يستوضح تأثير البيئة من جهة المعنى
ومن جهة الحس جميعاً . واما تين Taine فذهب الى ما يلي ذلك إذ اراد ان يُقعد الادب
تحت حكم مذهب « الحتمية العلمية » ، فهو ابدأ يفتش عن الأسباب الموجبة ، لذلك يعدّ
مظاهر الفن ولائد ثلاثة عناصر مؤلفة على تفاوت : السلالة والبيئة والزمان . ثم اصبح النقد
مع بر نتيير Brunetière لوناً من الوان فلسفة « النشوء والارتقاء » او « التحول » ،
من ذلك انصراف همه الى تسلسل المؤلفات بعضها من بعض وخروجها من طور الى طور
بأسباب جماعية أو فردية

(١) Saintsbury, the History of Criticism and Literary Taste in Europe (1900 — 1904)

على ان النقد في فرنسا لم يدخل كله في ذلك الجانب الوضعي . فقد اتجه فريق الى الطريقة الابتداعية *romantique* ، وقوامها الهزيمة ، وغرضها التأمل ثم الانجذاب الى ألطاف الجمال وأنوار الجلال . ومن أمتع الأمثال هنا كتاب فكتور هيجو في «وليم شكسبير» . ولهذا الضرب من النقد ان يكون . فالحق ان وراء سبحاته مطالع آفاق . غير انه ادخل في إنشاء الفنان المتخيل ، وعلى هذا فصول تيوفيل جوتييه ، لذلك هو حريّ بتناول «الفنون الرفيعة» نحو الموسيقى والرقص والتصوير . وأياً كانت جهته فإنه يحسن به ان يلتفت الى ما سيأتي من الحديث ، حتى يعتمد . ومن لواحق الابتداعية اسلوب التأثر في النقد ، ومن أربابه عندنا جول ليموتر . وهناك أساليب أخرى لعلّي أتكلم عليها جميعاً في إملاء آتية



واليوم لسنا نرى النقد عبداً لمذهب من مذاهب العلم ولا تبعاً من اتباعه . بل نحن نتكلم في ما بين النقد والعلم من تساور وتماص وتجاوب ، على ما قد بينه ، من طريق النظر والعمل ، رُكن النقد الأدبي في هذا العهد : ج. لانسو G. Lanson^(١) ومن نماحوه فالنقد الأدبي مثلاً إنما ينهض على الإحاطة المستنيرة بتاريخ الأدب ، وهذه الإحاطة المستنيرة هي التي تصقل الذوق فتحذب الحس الى الجميل وتنفره من القبيح ثم تهىء الحكم . فليست معرفة التاريخ الأدبي ههنا لوجه المعرفة ، ولكنها تجري الى تلطيف الاحساس وشحن الادراك . ولا بدّ للاقبال على تاريخ الأدب من منهج شديد ، وقد وقفتم على بعض هذا المنهج لما تحاورنا في طرائق علم التاريخ ، فعرضت لمسئلة الفهارس والمراجع مع إعداد النصوص وترتيبها ثم تمحيصها بنقدها نقداً خارجياً هنا وداخلياً هنا ، كل ذلك الى جنب ما يتصل بالبحث عن استمداد الأديب من سابق له ، وزوله على حكم بيئته ، وجريانه مع تيار عصره ، وانفراده عن مواقف غيره بطابع قائم برأسه

ومن التقصير ان تقتنعوا بالاستبحار في تاريخ الأدب ، فلا معدى عن الوقوف على مقاصد الفلسفة بما يندرج تحتها من علم النفس وعلم الاجتماع خاصة ، واذكروا هنا كيف يتنقل كروثشي B. Croce الناقد الايطالي المهتم بين تاريخ الأدب والفلسفة تنقل العارف ، واذكروا أيضاً معاصرتنا الفرنسي مرتا Maritain . ثم استضيئوا بعد ذلك بالرفيع من آداب الأمم الأخرى ، فلموازنة بينها من الأبواب التي شُقت الآن في النقد الأدبي . واستأنسوا أخيراً بالفنون على ألوانها

(١) لا تزال نغاني رسم الكلمات الاعجمية على أصل مخارج حروفها ونبرات حركاتها

تلكم عُدَّة من عدد التمييز والحكم . ثم دونكم آلة لا بدَّ منها للناقد الوثيق الأمين . وهذه الآلة هي ما نسميه . الأسلوب العلمي . وهو يكتسب من طول الممارسة لخطط العلوم على أصنافها وأقسامها . ولا أحب أن أذكركم بقواعد منهجه : من نبذ الهوى ، وطرح التعصب ، ولزَّم الشك خشية الزلق ، ثم التحفظ في التعميم ، والترنن في التحليل ، والترث في التركيب

ذلَّكم موقف الذهن من الحقيقة ذات الحرمة ، وذلَّكم هو السبيل إلى المعرفة ذات الرفعة . ومن شرائط الأسلوب العلمي : استطلاع لا غرض فيه ، وطوية ببيضاء ، ودأب متصل ، ثم إعراض عن الارضاء أو الاسخاط وإهمال لسطوة هذا أو شهرة ذاك ، وامتنال للتوابع المحسوسة ، وتقصّر في الجسّ مع شخص ما سطره النقاد من قبل وما انتهوا إليه من نتائج . ثم احذروا البرهنة من طريق القياس لأن مبذولات الفن ليست على غاية في الدقة واليُسمر والاستقلال ، وخير من تلك البرهنة أن تعملوا العمل الذي لا عجلة فيه حتى تنضج الفكرة فيستقر الرأي على عمود الحق أو ما يداني الحق . فعليكم أن تعتمدوا الحسّ المختبر ولا ترجعوا إلى الهاجس ، إلى الحدس ، إلى نفضة الوجدان إلا في الذي يدقّ عن الإدراك المباشر ويُعجز الحسّ الظاهر كمثل الشعور بالاعجاز والروعة

فاذا أنتم نظرتُم في أثر من الآثار قديماً كان أو حديثاً ، عرفتم كيف توجهون البحث وقد رفعتُم عن ذوقكم واحساسكم وخيالكم سلطان الرعونة والانانة ^(١) ، فتحصرون الذات المطلقة وتحدونها ، لا تدعونها تشط وتبغي حيث لا يحق لها سوى الكشف اللطيف



هذه الآلة وتلكم العدة تنفصلون عن فئتين تقبلان على النقد أيضاً :

ان عامة القراء هم إحدى هاتين الفئتين ، ينقدون عفواً بحسب مناهلهم ومنازعهم . ويلحق بالقراء من ينشر في الصحف حتى في الكتب احاديث تجري مجرى هيئلا تصعيد نظر فيها ولا تصويب : احاديث مرتجلة تكاد تُقرأ مرة ثم تُلقى . وأما الفئة الثانية فأهلها يقتحمون النقد لميل فيهم إلى التهويل ، فيفرشون ألوان مهارتهم الذهنية على حساب الأثر

(١) « الرعونة : الوقوف مع الطبع » ، « الانانة : قولك أنا » عن اصطلاحات « الفتوحات المكية »

راجع ذيل « التعريفات » للجرجاني

الذي ينظرون فيه ، فما يشغلهم الدنو من الحقيقة ولا يحركهم الغوص على دقائق الأثر خدمة له وعناية بجمهور القراء . وذلك لأنهم لا يعلمون ان للنقد غاية سامية تلهو بحذقهم ، فكأنهم لم يقرأوا ما كتبه فُلْتير : « لقد طالما كانت لنا تسع ربّات للأدب ، والنقد الصحيح هو الربة العاشرة »

إنما غاية النقد تجري الى امور . منها : تدبر ما يُرفع للعين . أمّا كان الناقد kritikos عند الهلنسيين يتوسم ما يشده الراوية من شعر هو ميرس ، فيرتاب في صحة هذا البيت او في موقعه من القصيد ؟ — ومنها : وضع القيم في مواضعها من طريق أحكام هي وليدة الاطلاع والدرّبة والتفهم والانجذاب ، فلا اجتلاب ولا مجازفة — ومنها : الحدّ من طغيان النقد الرّجل والمقتحم جميعاً باقامة الحصافة والأمانة والاحاطة واللّقانة مقام الشطط والهوى والدعوى والعبث — ومنها : إغاثة الآثار الرفيعة على ان تنكشف وتنتشر الى جنب الاشادة بالقرائح الغمّرة السّميحة الطّليقة وبخاصة ان كانت مهملة أو كالمهملة ، مغمورة أو كالمغمورة ، هل تذكرون متى قدّر شكسبير حق قدره ، وكيف عُرف فضل مونتسني Montaigne في إنجلترا وفي وطنه فرنسا ؟ — ومنها : كشف الستر عن اهل الكسب لوجه الكسب وأصحاب الدجل في العلم والأدب ، فتبصرون القراء المستطلعين الراكنين اليكم بالأوهام التي بنى عليها اولئك الخلق صيتهم وجاههم . من ذلك المنزلة الوضيعة التي ركز فيها الآن نوعاً معروفاً راكضاً في الأسواق مبتذلاً ، إذ أطلقنا عليه هذا الاسم « أدب البوابين » ، ويسميه الإنجليز « الأدب الاصفر » ، وفي هذا الأدب الرخيص قصص وغيره . ومن ذلك أيضاً ما صنعه بوالو Boileau ثم موليير Molière في القرن السابع عشر لما عيّرنا « المتحدلقات » . فلا تخشوا ان تمسوا الاصنام الجُوف . وبذلك كله تصرفون الجمهور عن أعداء الثقافة الحقّة وضمن يدنسها راضياً ناصماً ، ثم تدفعون اليه — وأنتم رواده الخلفون — مقاييس الفن الخالص — ومنها أيضاً : الانشاء ، وذلك باستيفاء النواحي المقصورة في الاثر المنقود سواء بالمراجعة او الاستدراك او التنبيه إن كان الأثر ممّا يتصل بفروع العلم ، او برد الألوان الى اصولها وانواعها مع المعارضة والشرح اذا كان الأثر ممّا يدخل في ضروب الفن . وأنتم في ذلك تبنون وترفعون ، وتوهون وتوجهون ، وطلبتم الحقيقة . فيألس بنقدكم أهل الدراية وأرباب الفضل ويعظمونكم ويتأثرونكم

ولا تظنوا انكم مالمون من المطاعن والمغاضر ، وإن توفرت أيديكم العدة وتوثقت بين أيديكم الآلة . او لعليكم من أجل ذلك يقع فيكم من يقع . وانما خصوصكم من جهتين : جهة المرتجلين والمقتضمين الذين يحكمون بالوهم السائح والخطر الهاجم ، الا اذا كانوا ممن يرعى حُرُمَات العلم والادب ويكبر الحد ، ثم جهة المؤلفين الذين خفّت بضاعتهم وانتفع صانفهم وجلهم ممن نشأ نشأ شيطانياً *à la diable* فأعيامهم التحصيل وفاتهم التهذيب ، لذلك يرون الحق أبداً في جانبهم حتى اذا شرب احدهم وهو رياًس وطعم وهو شعبان . ميرمونكم بما أرمى أنا واخواني به

سيقول لكم العي الكسلان أو المغرور النفاج — وفي الناس من يجمع بين النعتين — : أنتم أهل اطلاع على الأصول والقواعد والمراجع والمصادر ، فحرام عليكم ان تخنقوا العبقرية ، عبقريتنا ، بضغظها بين اسباب معارفكم

ألا فأخبروهم ان الاحاطة مرقاة الفهم السليم . وذكروهم ان النقد أخذ في النمو بالاسكندرية على ايدي خزنة الكتب الذين جمعوا ورتبوا ، وفهرسوا وسردوا ، ونسخوا واذاعوا ، وأنه صار الى ما صار اليه في القرن التاسع عشر بفضل التنقيب عن النصوص والتحرير لها والتوفر عليها . ثم فقهوهم معنى الاحاطة ، عاذرين لهم : الاحاطة وسيلة لا غاية ، وليست المراجع والمصادر وما اليها غير ادوات تتوسّع بها المعرفة وتتقوى الذاكرة . نحن نسعى وراء الآراء ، وليكننا نزيدها الى الصواب أقرب وعن الخطأ أنأى . وهل يشك سوى الجاهل او المعتسف ان نشاط الذهن أسلم حين يتخذ موقفاً بعيداً عن التخصر والمجازفة ؟ واما الذوق فبالاطلاع ينعم ويرحب : فلا عجز عن لقف الرهيف وفهم البعيد ولقن الدقيق ، ثم لا صد عن الجديد ولا بغض للطريف ولا اغفال حتى للشاذ الغريب



سيثب اليكم الممخرق والمرتزق جميعاً ، هذا من امانتكم فزع وذاك على درايتكم حنق . فليكن ذلك لكم تفكيراً وتلمية ، ولا بأس ان يرفه عنكم وانتم في جدٍ ميسر . فلتناس أهواء ، وهواكم ان يظل بين ايديكم الجوهر الكريم الذي لا يرتقي اليه سوء

٢ - الكتب

• رسالة الغفران • منقولة الى الانجليزية بقلم G. Brackenbury

١٣١ × ١٩١ ، ١٥٩ ص ، مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر ، ١٩٤٣ *

قرأت هذه « الرسالة » فذهبت أفكر في ترجمة الأدب من لغة الى لغة كيف ينبغي أن تكون ؟ أنجعلها حرفية دقيقة بغير نظر الى ما بين اللغات من فرق في الذوق ، وطريقة تأليف الكلام « على معاني النحو » كما يقول الجرجاني ، وما بين أبنائها من اختلاف في أساليب التفكير والتناول ؟ ان الأمانة تقتضي هذا ، ولكن الأمانة لا تهون في كل حال ، ولا سيما اذا عظم الاختلاف بين لغتين كالعربية والانجليزية ، وبعدت مسافة الزمن بين العصر الذي ننقل منه والعصر الذي ننقل اليه ، فكان لهذا أثره حتى في الأجيال المتعاقبة من أمة واحدة ، فما ظنك بأمتين ، غربية حديثة ، وشرقية قديمة ؟ أم نتصرف كما تصرف فنزجرلد حين نقل « رباعيات الخيام » من الفارسية الى الانكليزية فطرح الثوب وتحفظ بالروح ونظم معانيها شعراً انجليزياً سلساً يطيب وروده على الأذن ولا تنفر منه أذواق قومه ؟ وليس لي علم بالفارسية ، غير أنني قرأت ترجمات عربية شتى لهذه الرباعيات عن الفارسية ، بعضها منشور والبعض منظوم ، قيل في وصفها انها حرفية ، وأنا أفضل ترجمة فنزجرلد ولا أعدل بها شيئاً ، لأنها شعر استطاع قائله — ولا أقول مترجه — أن يكسبه جمالاً ويجعل له سحراً . ولكن هذه لا تعدّ ترجمة بالمعنى الصحيح ، وأصدق ما يقال فيها — في رأيي — ان فنزجرلد استوحى معانيها من الخيام ، ولم يتقيد بالأصل ، بل أرسل نفسه وهو ينظمها على سجيته ومسجية قومه

ويقول بيتس E. S. B. Bates في كتابه « دراسات في الترجمة »^(١) ما معناه ان الترجمة الأدبية لا ينبغي أن تقتصر على أداء المعنى فحسب ، بل يجب أيضاً أن تنقل روحه الى القارئ ، وأن لا تكون في ثوبها المستعار أقل روعة أو جمالاً أو قوة منها في ثوبها الأصلي

* رتب أسامي الكتب على حروف الهجاء

ويذهب تيتلر A. F. Tytler ^(١) ، الى ان الترجمة ينبغي أولاً أن تكون دقيقة الأداء للمعاني التي في الأصل، وثانياً أن يكون للاسلوب وطريقة الاداء الطابع نفسه الذي للأصل ، وثالثاً أن يكون للترجمة كل ما للأصل من سهولة التأليف وسلاسة الانشاء . ولكنه يحجز بعض التصرف في الشعر ، لأن روح الشعر اللطيف من أن يحتمل الالتزام الدقيق للأصل ، وأخلق به أن « يتبخّر » اذا بالغ المترجم بالتقيد

وأحسب ان من العسير فرض قانون يلزمه كل مترجم في كل حال ، أو وضع قاعدة لا يتزحزح عنها مقدار شعرة ، ولكن من المسلم فيما أرى ان الامانة شرط لا معدى عنه ، وليست الامانة أن تؤدي المعنى وحده ، بل ينبغي كذلك أن تحرص على « شخصية » الكاتب . واذا قلت الشخصية فقد قلت الاسلوب ، وطريقة تناول الموضوع ، وعرضه ، والنهج الخاص في تأليف الكلام ، فان المعنى الواحد يكتبه رجلان ، فيكون بينهما تفاوت ، ويوجه كل منهما وجهته لأنه ينظر اليه من ناحية غير ناحية صاحبه ، ويخلطه في نفسه بغير ما يخلطه ذاك ، ويزاوج بينه وبين ما عنده ، ويولد من هذا التزاوج شيئاً آخر قد يجيء مختلفاً جداً على الرغم من التشابه العام ، كما يتشابه الشقيقان ، وهما بعد اثنان متميزان

♦♦♦

« رسالة الغفران » التي سافقنا الى هذا الحديث ، هي ، كما يعرف القارىء لأبي العلاء المعري . وسبب كتابتها ان ابن القارح حمل رسالة اليه ، فأضاعها ، فكتب اليه يعتذر وتكلف في اعتذاره أن يظهر علمه وفضله وأدبه ، فرد عليه أبو العلاء برسالة الغفران وقابل ما تكلف من العلم بمثله فأغرقه في بحر من علمه بالأدب ونقده الشعر ، واحاط ذلك باطار من الفكاهة ، وتحيل ابن القارح في الجنة يطوف بها ويرى ويسمع الى آخر ذلك

وكان الاستاذ كامل الكيلاني قد نشر « مختصراً » لهذه الرسالة ، احتفظ فيه باطار القصة ، ولم يستبق من غيرها الا ما لاغنى عنه للسياق ، فيتم قراءتها للقارىء العادي الذي لا يعنيه التوفر على الدرس والتحصيل

وقد نقل المسترجع . براكنبري هذا المختصر الى اللغة الانجليزية ، نقلاً حرفياً في الأغلب ، ولم ينبه الى ان هذه ترجمة المختصر لا الأصل ، فالقارىء الانجليزي الذي لا يعرف ذلك قد يذهب الى رأي في المعري لا مسوغ له في الحقيقة لان ما حذف من العناصر الادبية واللغوية في المختصر كثير والباقي لا يكفي للتعريف بما قصد اليه ابو العلاء

ومما يلاحظ أيضاً أن المترجم استعمل الفعل الماضي من البداية الى النهاية كأنما كانت الرسالة رواية لما كان ، على حين حرص أبو العلاء على أن يعرض على القارئ صورة تهكمية لرحلة متخيلة لابن القارح في الآخرة

والترجمة ، كما قلنا ، حرفية على العموم ، وصحيحة أيضاً . وقد تصرف الاستاذ في بعض المواضع — ولا سيما في ترجمة الشعر — تصرفاً لا يعاب ، ولكنه وقع في طائفة من الهنات يحسن التنبيه إليها

فقد ترجم هذا البيت

وان صخرأ لتأتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار
هكذا :

Let Sakhr be a guide and a leader outstanding...

اي فليكن صخرأ ... ثم ترجم :

أفنى تلادي وما جمعت من نشب قرعُ القوايز أفواهَ الاباريق
بقوله :

All the wealth I have hoarded up

Is nought to the clink of the brimming cup

That rings on the edge of the wine-jar's lip

ومعنى ترجمته : « ان كل ما جمعت من ثروة لا يعدل قرع ٠٠٠ » ثم ترجم :
ان الثراء هو الخلود ، وان المرء يكرب يومه العدم

بقوله :

The only wealth is the life to come

She says " though man be near his end "

فترجم « الخلود » بالحياة الآخرة ، وحسب العدم — وهو الفقر — العدم أي الفناء
بغير المعنى كله . ثم ترجم :

كأن المدام وصوب الغمام وريح الخزامى ونشر القطر
يُعل به برد أنيابها اذا غرد الطائر المستحضر

Like wine and rain and perfumed flow'rs

And scented sap — as healing balm

Flows out the nectar from her mouth

The while the bird in tones its lay

And fills the air with magic sound

وفيه قلبٌ لمعنى « يعل به رد أنيابها »
ثم ترجم البيت الثاني على لسان جنبي:

فتارة أنا صل في نكارتة وربما أبصرتني العين عصفورا
نلوح للأنف حُولا أو ذوي عور ولم تكن قط لا حولاً ولا عورا

فقال :

I took at times a horrid serpent's form
Or now a bird's — or did a man deform
To make him squint, or loose one seeing eye

والمعنى هنا مقلوب. فإن الجني يقول أنه هو الذي يبدو لبني آدم أحياناً أحول أو أعور. ولكن الناس صاروا هم الحول أو العور في الترجمة. أما الشطر الثاني من البيت الثاني فقد حذف كله

وفي ترتيب أبيات الجني خطأ (ص ١١١ — ١١٣) وهو مطبعي على الأرجح، ولم نجد ترجمة الأبيات الثلاثة الأخيرة منها

وهذه كلها هنات هينة وقليلة، لا تغض من قيمة الترجمة ومجهود المستر براكنبري فيها. وليس لنا أن نقول شيئاً في لغته فإن الرأي فيها لقومه دوننا، فهم أعرف بها وأقدر على الحكم عليها وتذوقها

وما أظن إلا أن القارئ قد أدرك أننا كنا نؤثر أن يترجم النص الكامل للرسالة المختصر، وإن كان لا يسعنا إلا أن نعترف بأن النص الكامل كان خليقاً أن ينفر القارئ الانجليزي ويتعبه. ولكن التعب حاصل على الحالين، فإن المختصر نفسه لا يوائم ذوق الغربي، ولا يجري على ما ألف، ولما كان الغرض من الترجمة أن يطلع الانجليز على مثال من الأدب العربي، فقد كان الانصاف يقتضي أن يُعرض على أصله وحقيقته، غير مبتور أو منقوص. وليس الحذف من عمل المستر براكنبري، فما عدا أن نقل المختصر المنشور، بامانة ودقة، فلا لوم عليه، وأنه لمشكور على مجهوده الذي لا نشك في أنه سيفوز من قومه بحقه من التقدير

ابراهيم عبده القادر المازني

• القاهرة • بقلم عبد الرحمن زكي

١٦ ١/٢ × ٢٤ ١/٢ ص ٢٥٣ ، دار المستقبل ومكتبة النهضة بمصر ، ١٩٤٣

كتاب جديد في الآثار الاسلامية وتاريخ مصر منذ العصر الفاطمي . وليس المؤلف غريباً عن هذين العلمين ، فقد تخصص فيهما حين درس بجامعة فؤاد الاول فتخرج في معهد الآثار الاسلامية منذ سنين وكتب المؤلفات والمقالات في تاريخ مصر وفنونها الاسلامية . وليس هذا الكتاب الجديد أول مؤلفاته في القاهرة ، فقد أخرج فيها كتاباً في جزئين ، ظهر الاول سنة ١٩٣٤ والثاني سنة ١٩٣٥ ، وأجل فيهما تاريخ العاصمة منذ نشأتها الى عصر الخديوي توفيق

أما الكتاب الجديد فقد امتد فيه الحديث عن القاهرة الى عصر الفاروق . وطبيعي ان يكون الكتاب السابق مجزئيه أساس هذا الكتاب الجديد . ولكن الفترة التي انقضت بين ظهورهما — وهي نحو عشر سنوات — لم يضعها المؤلف سدى ، فقد أفاد بما ظهر فيها من المؤلفات والمباحث عن مصر الاسلامية وطاقتها ، كما أتيج له ان يتصل بالاستاذ محمد رمزي بك وان ينفع بعلمه في هذا الميدان وبمذكراته الوافية عن القاهرة وتخطيطها وأسوارها وأبوابها ويجرى النيل فيها وما الى ذلك

وليس الكتاب دراسة في عمارة القاهرة وتطورها وأحيائها حسب . وطبيعي أنه ليس مجموعة من المقالات لا تكاد تمت بصلة الى القاهرة ، كما حدث في كتاب ظهر حديثاً يحمل اسم القاهرة على الغلاف وفيه من الاستطراد ما لا يسوغ هذه التسمية . وإنما كتاب البكباشي عبد الرحمن زكي قصة العاصمة وما يتصل بها من تاريخ مصر ، فقد صور المؤلف في صفحاته تأسيسها ، ومظاهر الحياة فيها ، والعمائر التي قامت على أرضها ، والأحداث التاريخية التي كانت مسرحاً لها . وعرض للأعلام الرحالة الذين زاروها وما دونه كل منهم عن ذكرياته . ولذلك وفق في ان يبعد الكتاب عن الجفاف الذي يعيب الكتب التي تفحص عمران المدن خصوصاً علمياً آلياً لا حياة فيه

♦♦♦

بدأ المؤلف بعرض سريع لعواصم مصر الاسلامية قبل بناء القاهرة فتحدث عن القسطنطينية والقسطنطينية . وبين ان العرب انصفوا في اختيار مواقعها وان ما رماهم

به ابن خلدون من الجهل في انتخاب مواقع المدن وخططها لم يكن صحيحاً في كل المدن التي شيدوها . ثم انتقل الى فتح الفاطميين مصر وانشاء القاهرة على يد جوهر القائد سنة ٣٥٨ هـ (٩٦٩ م) في السهل الرمي الواقع شمالي القسوط لتكون سكناً للخليفة الفاطمي وأهل بيته ورجال جيشه . وعرض المؤلف لقدم الخليفة المعز لدين الله وانتقال الخلافة الفاطمية من بلاد المغرب الى وادي النيل . ثم نقل وصفاً للقاهرة خلفه رسولان قدما الى مصر سنة ٥٦٢ هـ (١١٦٧ م) من قبل عموري (امريك) ملك الصليبيين ليعقدا مع الخليفة ، باسم سيدهما ، اتفاقاً سياسياً . وكان الأصح في رأينا ان يؤجل ذكر هذا الوصف الى بعد تمام الكلام على تطور القاهرة في العصر الفاطمي ، لأن قدوم الرسولين الصليبيين كان في نهاية هذا العصر

وقد وفق البكباشي عبد الرحمن زكي في الافادة من المؤلفات التي كتبها أعلام المشتغلين بالآثار الاسلامية وفي الانتفاع بدراسته في الجامعة ، فنجح نجاحاً كبيراً في دراسة تطور العاصمة في عصور الفاطميين والايوبيين والمماليك وابرار مميزاتهما في كل عهد من هذه العهود التاريخية ، واستطاع ان يفصل الكلام في أسوار القاهرة ومساجدها وقلاعها وسائر ما شيد فيها من العمارات التي اصبحت العاصمة المصرية بفضلها خير متحف لطرز العمارة الاسلامية في مختلف عصورها

ولم يهمل المؤلف دراسة المجتمع في القاهرة خلال تلك العصور التاريخية فتحدث عن أعياد القوم وعاداتهم وأساليب التعليم عندهم وشهرة علماء القاهرة التي سرت الى بلاد الاندلس ، حتى كان الرحالة المسلمون من المغاربة — مثل ابن جبير — يحرصون على لقاء أولئك الاعلام

ومما ذكره في هذا الصدد ان صلاح الدين ولي عرش السلطنة المصرية « ولم تكن في مصر مدرسة واحدة تعنى بنشر التعليم الديني على أسسه الصحيحة » (ص ٦٩) . وهذه مسألة فيها نظر ، وكان الاسلام في رأينا أن يقال انه لم يجد مدارس تعلم قواعد الاسلام على مذهب أهل السنة .

ولسنا نوافق المؤلف على ان أحداً من حكام القاهرة لم يخلف مثل ما خلفه صلاح الدين من آثار لا تزال باقية وان القاهرة تدين لهذا السلطان بشكها واتساع نطاقها الى درجة لا تقل كثيراً عما هي عليه الآن (ص ٦٠) . فالحق ان في هذا القول هضماً لحق عصر المماليك

وما ازدانت به القاهرة من العماثر الجميلة في القرنين الثامن والتاسع بعد الهجرة (١٤ و ١٥ بعد الميلاد) . ولا يفوتنا ان صلاح الدين مات قبل أن يكمل بناء القلعة والسور

وجاء في الكتاب (ص ٧٦) أن شجرة الدر اتفقت مع الأمراء ، بعد وفاة الملك الصالح ، على مبايعة « ابنها » . وأكبر الظن ان هذه غلطة مطبعية لأن شجرة الدر لم تكن والدة طوران شاه بل كانت زوجة أبيه . فلعل المقصود « ابنه » . ولنذكر في هذه المناسبة ان الأخطاء المطبعية كثيرة في الكتاب وان بعضها من الخطر بحيث لا يسهل معه فهم بعض الجمل فهماً دقيقاً . وقد سرنا ان المؤلف فطن الى ذلك فطبع بياناً مستقلاً بتصحيح الأخطاء المطبعية ضمه الى ما لا يزال باقياً في المكتبات من نسخ الكتاب

ولاشك في ان البكباشي عبد الرحمن زكي يستحق أطيب الثناء على الفصول التي عقدها للكلام على القاهرة في عصر المماليك فانها تمتاز بدقة البحث وتقصي الحقيقة العلمية وعرضها في أسلوب سهل لا تعوزه الحياة . أما ما كتبه في المدينة أيام العصر العثماني والعصر الحديث فحسبه انه السابق في هذا المضمار ، لأن القاهرة في هذين العصرين لم يكتب فيها ما يستحق الذكر ، ولأنه أصاب نجاحاً كبيراً في الاعتماد على ما دونته الرحالة الذين زاروها حينذاك وعلى مختلف المصادر التي يجب الرجوع اليها في هذا الصدد . وطبعي من المؤلف ، وهو ضابط ومؤرخ للجيش ومدير لمتحف الحربي ، ان يخص الناحية الحربية ببعض الاطلاة فنراه يعنى بالحملة الفرنسية على مصر وبما أحدث الفرنسيون في القاهرة من هدم وبناء لأسباب عسكرية مثل مقتضيات الدفاع

♦ ♦ ♦

اما الجزء الاخير من الكتاب فعن تطور القاهرة منذ محمد علي الكبير الى أيامنا هذه . والحق انه تطور عظيم بما أحدثه حكام مصر من قصور وحدائق ومرافق عامة وما طراً على مساحة العاصمة من نمو وامتداد وما قام على أرضها من عماثر ضخمة حكومية وغير حكومية واذا ذكرنا ما بذله المؤلف في اهتمام الكتاب واعداد صورته وخرائطه من جهود مشكورة ، وما أسداه للخزانة العربية من خدمات باخراج هذا السفر في تاريخ عاصمة الديار المصرية ، فأننا نحرص على ان ننبه الى ان مثل هذه الكتب العلمية التي يحتاج الباحث الى الرجوع اليها يجب ان يعنى فيها بعمل مسارد هجائية لمحتوياتها حتى تسهل الافادة منها ويمكن الكشف فيها عن مختلف المسائل التي قد يُظن انها تطرقت الى الكلام عليها

وفي رأينا أنه يحسن بالمؤلف أن يزيد في العناية بهذيب اللغة في آثاره العلمية، وأن يتجنب الأسلوب الحربي في عبارته، وأن يترك التأثر باللغتين الانجليزية والفرنسية في تركيب عباراته، فإنه بذلك يسدي أجل خدمة لمن اعتادوا قراءة الآثار الأدبية، ويتجنب لوم الذين يعنون بسلامة العبارة ورصانة الأسلوب

زكي محمد حسن

♦ الملك الضليل ♦ بقلم محمد فريد أبو حديد

١٥ × ٢٢ ١٩٨٠ ص ١٩٨٠ ، مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر ١٩٤٤

يحتوي هذا الكتاب على ترجمة حياة « امرئ القيس » في قالب قصصي. وهذا الضرب من التراجم القصصية على أسلوب في يكاد يكون جديداً في أدبنا العربي، فقد طالع بعض كتابنا من قبل، ولكنهم لم يبلغوا في معظم آثارهم مبلغ الاجادة الفنية. فظهور هذا الكتاب يعد في الواقع ظاهرة جديرة بالاعتبار، لأن حظه من الفن موفور

وقد ازدهرت التراجم القصصية في الأدب الغربي ازدهاراً عظيماً، وبرز فيها ادباء من أعلام الفكر، وقد لقيت من إقبال جمهور القراء ما يدل على فرط الشغف بها والارتياح إليها. وذلك لأن التراجم على هذا النحو تعرض حياة الشخصيات البارزة عرضاً شائق الأسلوب، خلاص القالب نائياً عن جفوة التاريخ البحت. والانسان مفطور على التطلع الى دوائر هذه الشخصيات في تنبسط يدينها الى الحياة المألوفة الدائرة، وميل الناس الى ذلك أقوى أعراقاً من ميلهم الى تعرف الأبطال الخياليين في القصص، لأن شخصيات التاريخ أناس مثلنا أحاطهم الزمن بهالة من العظمة سمت بهم فوق العيون، ومن ثم يطمح لنا أن نجني مزاياهم ونبتين نقائصهم ونسبر أغوارهم في وسائل معاشهم

وثمة فرق بين التاريخ القصصي، والقصص التاريخي، ففي النوع الاول يلزم الكاتب نفسه الأمانة والدقة. في سرد حوادث التاريخ وترسم الشخصيات. ولكنه يبسط خياله شيئاً ليستعين على الحبك والتصوير، وفي النوع الثاني يطعن الاختراع والتخيل على الموضوع التاريخي، فتبعد القصة عن الثقة التاريخية التي يمكن التعويل عليها

♦♦♦

والكتاب الذي بين يدينا من نوع التاريخ القصصي، وهو يعالج حياة شخصية من الشخصيات البارزة في أدب العربية، وهيمات لدارس هذا الأدب أن يأخذ فيه دون أن

يستمتع الى قول صاحب تلك الشخصية : « قفانك ... » وأن تسترعى انتباهه تلك الحياة الجياشة بالمغامرات وتقلبات الدهر ، حتى لتجعل من « امرىء القيس » شخصية أشبه شيء بشخصيات الأساطير

وأوضح ما يطالعك من هذا الكتاب انه صورة واضحة المعالم ، صادقة الشعور ، فانك لتحس إذ تمضي في صفحاته كأنك تحيا في رحاب الصحراء ، بين تلالها ورمالها ، ومراح إبلمها ، ومسارح صيدها ، ومنابع مائها ، ومنابت زهرها ، تتنقل مرافقاً هذا الفتى العايب الفيض القلب بشاعريته ، فتطرب بأغاريده يرددها حيث يهوى لاعب ولا كلفة . ثم ينمى الى الفتى أبوه ، فتراه ينفض عنه غبار اللهو ، وينهض للأخذ بالتأر ، فيواتيه الحظ حيناً ، ويكبو به أخيراً . وينتهي به المطاف الى أنقرة يلتمس الراحة لنفسه المكدودة وجسمه المنهوك ، فيستوفى أنفاسه هناك . والمؤلف يعرض هذه الصورة مفصلة في لطف تنسيق وحسن تعبير ، فيتابعها القارئ جذلان

وكما وفق المؤلف في رسم شخصية « امرىء القيس » وتحلية نفسه في أطوارها المتباينة لم يخطئه التوفيق في رسم سائر الشخصيات التي اتصلت من قرب أو بعد بحياة ذلك الملك الضليل

ولا ننسى ما لهذا الكتاب من فائدة في اضاءة تلك الحقبة المظلمة من التاريخ العربي ، وهي العصر الجاهلي ، فهو يدني للاذهان صورة الحياة السياسية والاجتماعية لذلك العصر ، وهو كذلك يصور لنا حياة « بيزنطة » في مجالي بذخها وامتهناتها وما تتقلب فيه من مناعم ومباهج ومجون

محمود تيمور

• الواحة • بقلم صلاح الاسير

١٤٦ × ٢٢ ١٢٥٦ ص ، منشورات الاديب ، بيروت ١٩٤٣

صلاح الأسير من شعراء الرمزية في لبنان على ارهاف في الشعور ورقة في النغم وانطلاق في الخيال ، وقل ان يلمس وادي الحقائق بجناحيه . ولهذا نجد في انطلاقه بعض الشذوذ بين معاني القصيدة ، فالطائر يظل يحوم في الجو متردداً ، مختلف الوجهة قبل ان يحط في مكانه ، وقد نجد في هذا التثقل لذة وإن كانت تخطف البصر ، وتشأت الفكر . ولا يمنعنا هذا من الالتفات الى معاني الشاعر المستحدثة وتشبيهاته اللطيفة وموسيقاه العذبة . وقد جمع عدد من

قصائد ديوانه ألواناً من هذه المعاني والتشبيهات، تسوقها في موكب شعري تلك الموسيقى كما هو الشأن في قصائد « الى غريبة » وفيها يقول :

يهتف بي ويشردُ في ناظريها الموعدُ
وأرقبُ الهمة في بوح لها وأرصدُ
أخاف إن يقينها ضلَّ به الترددُ
وبي رفيف اللحن بي مصرعه والمولدُ
ولهفة لها فمٌ ورغبة لها يدُ

وقصيدة « وشاح أزرق » و « تقولين » و « اسمها » و « دمة » وفي هذه يقول :

من ترى ذوب في عينيك آثام الليالي
دمة رقاقة الشكوى على خد الزوال
يتلاشى دونها حلم الصبا ، حلم الخيال
عمرها لمعة فكر البكر في يوم الضلال
مات فيها المأمل الضاحي وغارت في الوبال

وقصائد « رجاء » و « الى ساقية » وغير ذلك من العقد المنتظم الحبات

ولو عني الشاعر بمراجعة بعض ألفاظ الديوان والتدقيق فيها من الوجهة اللغوية لجعل جمال هذه الحبات متناسق الجوهر ألاق البريق ، وكان في امكانه أن يتخلص من كلمة « التمرمر » في قوله من قصيدة « الى امرأة »

أهواك في التمرمر م الظلمات والتردد

وكان أوقع وأقرب الى الرقة في اللفظ والصحة في اللغة لو استبدل بها كلمة « التامل » ، وكذلك كلمة « مضن » في قصيدته « اني مغنية » بعيدة عن الصحة ، وغير ذلك من مثل هذه الكلمات . وليس معنى التنبيه الى مثل هذه الأشياء انتقاصاً لحق الشعر ، ولكنه حرص الفنان على أن يرى الشيء الجميل خالياً مما يشغله عن متابعة الفتنة فيه

وقد قدّم الشاعر لمجموعته بحوار بين المثال والحجر جعلني استعيد في ذاكرتي وأنا أقرأها مسرحية « مفرق الطرق » لبشر فارس ، وظلّ هذا الخاطر يتراءى أمامي في الجو وفي الحوار وان كان فيهما لفتات من لفتات صلاح الخلوة

♦ ألوان من الحب ♦ بقلم عبد الرحمن صدقي

١٣ × ١٩ ، ١٥٦ ص ، مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر ، ١٩٤٤

مجموعة من القصص منقولة من فرائد الآداب الاسبانية والروسية والفرنسية مختمة بأقصوصة من وضع المترجم موضوعها « بليزيس ملكة سبأ » . وفضل المترجم في هذه المجموعة أنه قدّم للقارئ العربي طاقة في اختيار أزهيرها لطف الذوق . وهذا الى أن بعض أصحاب هذه الأزهير لا عهد لنا بالاطلاع على آثارهم في العربية . فبجانب « موبسان » الفرنسي و« تشيكوف » و« جُرْكي » الروسيين — وهم ممن حفلت المترجمات العربية بأدبهم — نجد قصصاً « لابانيز » الاسباني و« بزاك » الفرنسي و« اندرييف وليسكوف وكيرين » الروس ، وهم جدد أو كالجدد على القارئ العربي . ولقصص هذه المجموعة طابع يؤلف بين أشتاتها وهو تحليل نوازع الحب في ألوانها المختلفة

أما الأقصوصة الموضوعية التي تعرب عن فن المترجم فقد أصاب فيها توفيقاً ، اذ نجح في تحليل نفسية المرأة . هذا والكاتب يعني من ناحية الأسلوب باختيار اللفظ للمعنى المراد
(١) *

♦ تاريخ غزة ♦ بقلم عارف العارف

١٧ × ٢٤ ، ٣٥٥ ص ، دار الايتام الاسلامية ، بيت المقدس ١٩٤٣

من محاسن هذا الكتاب أن مؤلفه يفتحه بآبائات مصادره العربية والافرنجية ، وإن أغفل ذكر النشر والطبع والسنة والمكان . وفصول الكتاب تنبسط على عهود كثيرة . فهي تتعقب ، في سرعة أحياناً ، أخبار غزة تحت مختلف من بناها أو ملكها أو فتحها ، من المعينين حتى يومنا هذا ، مروراً بالكنعانيين والفرعنة والاسرائيليين والآشوريين والفرس واليونان والرومان والمسلمين على تعاقب دولهم والصليبيين والمماليك والترك ثم نابليون وابراهيم باشا فالانجليز

هذا وفي الكتاب فصل موقوف على « غزة في يومنا هذا » (ص ٢٤٩ — ٣١٦) وهو حسن مفيد ، إذ فيه النظرة الواصفة الشاملة والاستقصاء في لم معظم ما يتعلق بعمران

المدينة ، وطريقة المؤلف هنا المشاهدة والتحري . وفي الظن ان هذا الفصل حقيق بأن يُرجع اليه اليوم وفي الغد

وفقر الكتاب ، مرتبة وفصوله متعاقبة . ثم فيه ٣٥١ صورة تتصل بالآثار والرجال ، وبعض هذه تلحق الكتاب بالرسائل الصحافية ، ثم ليس للكتاب مسرد للرجال والأماكن

*

• تونس الخضراء • بقلم لجنة دائرة المعارف الاسلامية

١٦ × ١٩ ١/٢ ، ١٣٧ ص ، مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر ، ١٩٤٣

في هذا الكتاب ادرج نفر من لجنة ترجمة دائرة المعارف الاسلامية مقالات مقتبسة من تلك الدائرة كان قد ألفها طائفة من أعلام المستشرقين الفرنسيين . ورأت اللجنة أن تحذف المراجع التي تثبت في خواتم المقالات ، لأنها تريد اذاعة كتاب سهل المأخذ ، خفيف المادة . ورأت أيضاً أن تستكتب الاسناد شفيق غربال من أهل التاريخ في مصر ، فصنع بحثاً في « تونس المعاصرة » جاء كالمدخل الى مقالات المستشرقين . وقد عرض المؤرخ فيه لما آلت اليه تونس بسبب المشكلات التي وقعت لها وانتهت بها الى النزول تحت سلطان فرنسة ، غير أنها لم تسلب شخصيتها على نحو ما جرى للجزائر . فهي محمية أو كالمحمية ابتغاء الاستغلال . هذا وليس لهذا الكتاب المفيد مشتمل للموضوعات ولا مسرد للأسماء أو غيرها .

*

• تغذية الحيوان • بقلم احمد غنيم

١٦ × ٢٣ ، ٢٠٠ ص ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٤٣

يبحث الكتاب في انواع غذاء الحيوان وقبول هضمه لها وحاجته إلى مواد معينة ومركبات خاصة فيها صنوف من الفيتامينات ثم حاجته الى مقادير قائمة على النسبة الدهنية . ويلى ذلك علائق الغذاء بمجهود الحيوان ثم بنموه وتسعنته . ويختتم هذا الكتاب الذي يعد مرجعاً عملياً تجريبياً جدولاً لمواد العلف فيه فائدة دانية كبيرة

*

• جميل بثينة • بقلم عباس محمود العقاد

١١ ١/٢ × ١٦ ١/٢ ، ١٥٢ ص ، مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر ، ١٩٤٤

٣ - المخطوطات

دَرَج بردي مصري *

« فاسمك تخشاه الامم يا رب »

« المزامير » ١٠٢ ، ١٥

من المقول الشائع في أوراق البردي انها جافة كالرماد ، وحقاً يجب أن تكون كذلك اذا وقفنا عند المعنى الحقيقي للكلمة ، لأن الماء يصير تلك الأوراق كتلة من اللباب البني الذي لا قيمة له . أما اذا انصرفنا الى المعنى المجازي فالأمر ليس كذلك ، إذ الأوراق بعيدة كل البعد عن الجفاف ، هي ملاءى بفوائد انسانية في أعين من يستطيع تأويلها ومن الأمثلة في ذلك أخرى مقتنيات « جمعية فؤاد الاول لعلم البردي » فهي فريدة في نوعها . هي درج بردي - من أجزاء كثيرة - يشتمل على النصف الأخير من سفر « التثنية » من التوراة ، مكتوب بحروف جميلة كبيرة مستديرة على الخناء ، وهو الرسم الخاص بالقرن الثاني والاول قبل الميلاد . ولاشك انه كان مخطوطاً أنيقاً ، وذخيرة ثمينة عند صاحبها اليهودي - وهي جديرة بالتنويه لتاريخها المتقدم فلا يضارعهما إلا قطعة من الترجمة اليونانية للتوراة في مجموعة بردي ريلاندز Rylands في منشستر ، هي دونها في الحجم كثيراً ، ولكنها من باب المصادفة العجيبة جزء من درج يشتمل على النصف الأخير من سفر « التثنية » أيضاً ويرجع الى القرن الثاني قبل الميلاد كذلك

ومما يبعث الظمأنينة في الأنفس أن النص الوارد في هذه الأوراق المتقدمة مطابق - لولا اختلافات يسيرة - للنص المثبت في العصر الحديث . ومعنى هذا أن نسخاً من النص اليوناني للتوراة كانت متداولة في مصر ، وذلك بعد مدة دون القرنين ، من يوم نقل التوراة من العبرية الى اليونانية أول مرة في الاسكندرية . ثم إن نصوص هذه النسخ المتداولة كانت بالفعل نصوص النسخة التي طبعها سويتي Swete أو بروك Brooke ومكلاين McLean

أن البقية الضئيلة لمجموعة بردي ريلاندز لم تحفظ لنا مثلاً واحداً لكلمة كيريس Kyrios (الرب) أو ما يرافها - هذا على حين أن بردي القاهرة يطلع علينا بمفاجأة تامة ، فهو

* كتب هذا البحث خاصة لباب « التعريف والتنقيب » من مجلة « المقطف »

يعطينا أمثلة كثيرة في النص اليوناني للكلمة العبرية الآتية (أو على الأحرى: الإرميية) «يهشي»
المؤلفة من أربعة أحرف . وهذه هي أول مرة نجد فيها كلمة عبرية مستعملة باطراد في نص
يوناني من نصوص البردي على الإطلاق

♦♦♦

وتبين الصورة المنشورة هنا أربعة أجزاء صغيرة من التي يتألف منها الدرج ، وقد
ألصقنا بعضها ببعض ، فبدت في عمود من عشرين سطراً أو تزيد . ويشتمل هذا الجزء من
الدرج على قسم من سفر «التثنية» (من الاصحاح الـ ٣١ ، الآية الـ ٢٨ الى الاصحاح
الـ ٣٢ ، الآية الـ ٢٧) أكثره من «نشيد موسى» . وانك ترى اسم الآلهة بالعبرية في
العمود الثاني في السطر السابع والخامس عشر . ولقد تعمّد الناسخ — ويكاد يكون من
الحقق انه كان يهودياً يتقن اليونانية — أن يتهياً في كل مرة لأقحام الكلمة العبرية ،
وذلك بأن يتقن من وجود مكان يسمع كلمة «يهشي» المكتوبة من اليمين الى اليسار بعد
الفراغ من اثبات آخر كلمة يونانية مكتوبة من اليسار الى اليمين . فكان يقيس المسافة
ويحددها بنقطة في كلا الجانبين (أنظر سطر ١٥) . وهكذا نبأغت الناسخ — بعد عشرين
قرناً — في عمله ، فنستطيع أن نلمح الى طريقته

♦♦♦

ان اسم الآلهة الخاص في التوراة العبرية وهو «يهشي» (يهوه أو يهوفوا كما يكتب خطأ
في الترجمة المقررة) لا يرد في ترجمتنا اليونانية للتوراة، ولا يرد كذلك في الترجمة التي
تُدعى «سبعينية» نسبة الى مترجميها السبعين . وأهم ما نعلمه عن الترجمة السبعينية قوامه
المخطوطات الانجيلية كالمخطوط الاسكندري ومخطوط الفاتيكان والمخطوط الامبروزي
والمخطوط السينائي المشهور (وهو الآن بالمتحف البريطاني بلندن) . ولكن هذه
المخطوطات كلها ترجع الى القرنين الرابع والخامس بعد الميلاد أي انها كُتبت بعد ستة قرون
أو سبعة بعد ترجمة التوراة (أو بعد ترجمة الكتب الخمسة الاولى منه على الأقل) وقد قام
بها المترجمون السبعون في عهد بطليموس فيلادلفس

ولقد ذهب بعض الثقات الى أن كلمة كيريس (الرب) استعملت منذ البدء لتأدية كلمة
«يهشي» في الترجمة اليونانية للتوراة، ولكن ورقة بردي القاهرة التي نصنفها الآن تدحض
هذا الزعم . ومهما يكن من شيء ، فقد كان ترك الاسم الخاص للآله وهو «يهشي» ، أو
الأحرى : استبدال كلمة «كيريس» (الرب) به ، خطوة ذات خطر كان على المترجمين أن
يخطوها ، فقد كان استبدالاً بعيد الأثر وعلى هذا يقول س . ه . دود C. H. Dodd

في كتابه «التوراة واليونانيون»: ١٩٣٥ «قد ساهم المترجمون السبعون — بمجرد اسقاط اسم الاله الخاص — في تحديد معنى التوحيد». وذلك أن كلمة «كيريس» (الرب) تتضمن معنى السيد المهيمن فهي صالحة كل الصلاح لوصف الاله الواحد الفرد من حيث أن الاله مهيمن بما في هذه الصفة من الاطلاق. ولكن جرت العادة في القرن الثالث قبل الميلاد باستعمال كيريس على أنها لقب من ألقاب بطليموس الرسمية (راجع «حجر رشيد») وفي القرن الثاني او قبله أطلق كيريس على «الرب سيرايس» الذي صاغه البطالمة. ويقوم المستر آلن رُو Alan Rowe الآن في نجاح عظيم بالكشف عن معبده الرائع في منطقة عمود السواري

أما في القرن الاول قبل الميلاد فنحن نعلم ان «الربة ايزيس» اتخذت اللقب المعجود «كيريه». وطوال العصر القديم كله كانت الكلمة في التذكير (كيريس) وفي التأنيث (كيريه) تُطلق على ثمانية وعشرين رباً واحداً عشرة ربة مختلفين. وأما هذا الاستعمال الوثني لكلمة كيريس لقباً ملكياً والهيئاً قد جنس مترجمي التوراة اليهود عنها زمناً. ويبدو أن هذه الوثيقة الجديدة التي نصفها ونسميها بردي فؤاد رقم ١٦٦ تدفع لنا دليلاً على تردد اليهود في ادخال كلمة كيريس في «الكتاب المقدس». وأقرب ما يضارع هذه الوثيقة إحدى أوراق بردي أوكزيرنكس Oxyrhynchus Papyri الجزء السابع رقم ١٥٥٧، وهي ترجع الى القسم الأخير من القرن الثالث بعد الميلاد وفيها صور الاسم الالهى «يهفي» بياء عبرية، وهي الحرف الأول من الاسم، مكررة مرتين يقطعهما في الوسط خط أفقي غير متقطع

أما مصدر وثيقتنا الجديدة فهناك ما يحملنا على الاعتقاد بأنه كروكوديناو بليس (أرسنوي). أي مدينة الفيوم. والجالية اليهودية في مدينة (أرسنوي) هذه معروفة عند المؤرخين المحدثين من زمن. فقد وردت اشارات اليها في وثائق ترجع الى القرن الثالث قبل الميلاد. وتشير بردية تاريخها سنة ١١٣ بعد الميلاد الى مجمع لهم وكنيس في مدينة (أرسنوي)

♦♦♦

لعله من الحق أن يقال ان البردي جاف كالرماد، فقد أوشك الرماد أن يتجمع هنا، فلنقف عند هذا الحد الذي بلغناه في هذا البيان

و. ج. وادل W. G. Waddell

استاذ الدراسات القديمة في كلية الآداب
بجامعة فؤاد الاول

نقله من الانجليزية: وهيب كامل، كلية الآداب

بَابُ أَخْبَارِ الْعِلْمِيَّةِ

مصل للتعمير

في الجسم وهذا النسيج هو في رأي بوغولومتس الساحة التي تنشأ فيها الامراض ، حفظ هذا النسيج في مستوى عال من الصحة والنشاط ، من أهم المسائل في مكافحة المرض . وعنده ان هذا المصل صنع لتحقيق هذا الغرض ولذلك يعتقد انه يصلح سلاحاً لعلاج احوال مرضية شتى مثل الحمى القرمزية وحمى النفاس والسرطان وضغط الدم العالي والشيخوخة المبكرة وغيرها

*

وتأخير الشيخوخة من الأغراض العلمية التي اتجه اليها بوغولومتس في مباحثه . وهو يرى ان الأمد الطبيعي للحياة هو ١٢٥ سنة الى ١٥٠ سنة لأن أمد حياة الحيوان يبلغ أربعة اضعاف او خمسة اضعاف مدة البلوغ . والمصل الذي صنعه يحفز — على اعتقاده — الجهاز الفسيولوجي فيعزز قدرة المرء على مقاومة العدوى وغيرها من الافعال المرضية كالسرطان

غذاء الجيوش

البريطاني ترتيبها بحسب رغائبهم . مثال ذلك ان هناك الفرع الهندي لخدمات التموين الذي يقوم بتموين الجنود الهنود وتزويدهم بأغذيتهم الخاصة وهي تختلف باختلاف أديانهم ومناطقهم الاقليمية

نشرت رسالة العلم الأسبوعية انباءً تلقتها من روسية ، عن المساعي التي يبذلها العلماء الروس ، لاتقان سلاح يكافحون به السرطان وضغط الدم العالي والشيخوخة المبكرة . وهذا السلاح مصل خاص استعمل في علاج الجروح فعجل اندمالها

يصنع هذا المصل بتلقيح الجياد بخلايا الطحال ونخاع العظم . وتتخذ هذه الخلايا من جنث أناس ماتوا احقة وثبت ان اجسامهم ليست مصابة بمرض معد . ويرجع الفضل في هذه الطريقة الى الاستاذ اسكندر بوغولومتس ، مدير معهد البيولوجيا والباثولوجيا التجريبية في مدينة كيف سابقاً وقد فصل أحد معاونيه — مرتشوك — الطريقة المستعملة في تحضير المصل وامتحانه في « المجلة الاميركية لآثار الطب السوفيتي » على ان هذا المصل لا يؤثر تأثيراً مباشراً في جراثيم نوعية الامراض او في سمومها بل هو يحفز نشاط النسيج الضام Connective

تضم الجيوش البريطانية في صفوفها جنوداً من مختلف الملل والنحل . وأغلب هؤلاء الجنود ينتمون الى أديان تحرم بعض الأطعمة ، في حين ان لجميعهم أطعمة وطنية خاصة تتولى فرقة خدمة الجيش الملكي

عقار جديد ضد الملاريا

روت رسالة العلم الاسبوعية الاميركية خيراً في المقام الاول من عظم الشأن ، عن عقار جديد لمكافحة الملاريا . فقالت في عددها الصادر في ٢٧ نوفمبر سنة ١٩٤٣ ان هناك دلائل على ان الجيش الاميركي يملك عقاراً جديداً لمكافحة الملاريا ، وان الامل الكبير المعلق بهذا العقار ، مدلول عليه في تجربة العقار في ساحات الحرب حيث تكثرت المناطق الموبوءة بالملاريا

ولم يذع اسم هذا العقار ولكن الحكومة أشارت الى وجوده في تقرير أذاعته عن خمسين جندياً تطوعوا لاجراء تجارب مكافحة الملاريا عليهم في غابات غنية الجديدة ، فنحوا وسام الاستحقاق لما أسدوه في شجاعة منازرة من خدمة لا يقتضيها الواجب العسكري

وقد قسم جميع المتطوعين لهذه التجارب ثلاث فرق ، احدها أعطيت الأتبرين (بديل الكينا) والثانية أعطيت هذا العقار الجديد المجهول ، والثالثة لم تعط شيئاً ولا استعملت أساليب الوقاية . فلما أصيب رجال الفرقة الثالثة عولجت بالعقار

وتقول رسالة العلم : ولعل هذا العقار مركب كيميائي جديد استحدث في أحد المعاهد المعنية بهذا الموضوع . وقد روي من سنة ان «البرومين» Promin وهو احد مشتقات عقاير «السلفا» يفعل فعلاً مضاداً للملاريا

وقد رويانا في جزء قريب من المقتطف ان البنسيلين يؤثر في لولبيات الزهري ، فعمل ما أثر عنه من هذا القبيل ، طائفة من العلماء على تجربته لمعرفة تأثيره في طفيليات الملاريا

الصلة بين الغذاء ومقاومة المرض

كشف فريق من الاطباء الباحثين في جامعة مفسناتي الاميركية ، سر الصلة الوثيقة بين الغذاء ومقاومة المرض ، إذ أثبتوا بالتجارب الخاضعة للتحقيق العلمي ، ان نشاط كريات الدم (فاغوسيت) التي تلتهم جراثيم الأمراض ، يضعف كثيراً اذا نزلت فيتامينات معينة من غذائها . وهذه الفيتامينات هي بعض ما ينطوي في فيتامين B المركب ، وكذلك فيتامين C ويبدو كذلك ان نقص فيتامين

A و D يضعف نشاط الكريات التي تلتهم الجراثيم . وقد أشار الاطباء الذين كشفوا هذه الحقيقة الى أن نقص هذه الفيتامينات لا يضعف الاجسام المضادة للأمراض التي تتولد في الجسم بفعل اللقاح ضد مرض او آخر

ومن المحتمل ان يفضي هذا الكشف الى تبين حاجة الجسم الى الفيتامين ، بامتحان نشاط الكريات التي تلتهم الجراثيم

لافوازييه

احتفل العالم العلمي بالعيد المئوي الثاني
لميلاد انتوان لوران لا فوازييه . وهو العالم
الفرنسي الشهير الذي وضع أساس الكيمياء
الحديثة فقبل فيه بحق انه المُنشئ الاصلي لها .
ولد لا فوازييه في السادس والعشرين
من شهر اغسطس من عام ١٧٤٣ . ومنسرد
لقرائنا نبذة عن بحوثه في علم الكيمياء .
وعن خدماته للعالم بوجه عام . قد كان
لافوازييه اول من بين بتجاربه المشهورة ان
الهواء الجوي هو عبارة عن مزيج من غازين
مختلفين . أحدهما هو غاز الاكسجين . والآخر
هو غاز الآزوت الذي نعرفه الآن بغاز
النيتروجين . وقد بين لا فوازييه أيضاً ان
الاكسجين يساعد على الاحتراق . وضروري
للتنفس . وان النيتروجين يحمي الذهب والنار
ويقضي على الحياة . وقد فسر لا فوازييه
تجارب كافنديش ، فأثبت ان الماء مركب من
غازي الاكسجين والهيدروجين وان الحامض
النيتريك يمكن انتاجه باتحاد غازي الاكسجين
والنيتروجين . وقد كان لا فوازييه اول من
عمل على اصلاح وتعميم المسميات الكيميائية .
وقد رتب أول جدول للعناصر الكيميائية
الموجودة . ويمكن القول ان بحوث
لافوازييه في فروع العلوم المختلفة تقرب في
ما لها من شأن وتقدير العالم لها من بحوث العالم
البريطاني ايتالو السير اسحاق نيوتن

والمقام مناسب لأن نذكر ناحية أخرى
من أعمال لا فوازييه وجهوده . فقد اهتم
لافوازييه طوال أيام حياته بخدمة الشعب
عامة ، وبخدمة العلم والحث على الأخذ به
وتطبيقه في الصناعة خاصة . فقد عمل مثلاً
في السنين الاولى من حياته العلمية على ملاحظة
التغير اليومي في درجات الحرارة والقراءات
البارومترية في مساحات واسعة النطاق .
وذلك للبحث في التغيرات الجوية ودراسة
هل في الامكان التكهن عن حالة الجو . وهذه
أمنية قد حققها العلم الحديث . وقد كان من
أثر رسالة لا فوازييه عن اضاءة الشوارع
أن منحه ملك فرنسا مدالية ذهبية . وقد
زار لا فوازييه المناجم الفرنسية ومحاجرها
ومصانع الحديد فيها . وذلك لمساعدة
الاخصائيين في تخطيط خريطة جيولوجية
للبلاط الفرنسية . وانتخب عضواً في
الأكاديمية الفرنسية . وهناك ساهم بنصيب
وافر في تحضير التقارير العلمية عن مختلف
الامور التي كانت تهتم الشعب الفرنسي منها
تقارير عن السجون والمخترعات والصناعة
والصحة العمومية وغيرها . ولما كان عضواً في
« شركة الفيرم » — وهي شركة خاصة كانت
مهمتها جمع الضرائب عمل على اصلاح
والتحسين في طرق جمع الضرائب اصلاً
اساسه الرفاهة والرفق بالناس

مما جعل فرنسا في ذلك الوقت في حالة استعداد حربي ، معتمدة في ذلك على ما تنتجه من البارود بدون ان تحتاج الى استيراد مقادير منه من الخارج

كان لافوازييه من اعظم رجال العلم وقد جمع الى علمه كفاءة ادارية وعناية كبرى بالمصالح العامة . وهي صفات ندر ان تجتمع في رجل واحد (الثمرة العلمية الشهرية)

عصر السرعة واللاسلكي

وهما من الأوهام ، فيقول :
« ويسلم بمكة ، فيسمعه أخوه بالشام »
ثم يتبادى في خياله فيتمثل الانسان وقد استطاع أن ينقل النار في لحظات من مكان قصي الى آخر ، أو يتخيله يغص باللقمة وهو في « خراسان » فيمرع الى ماء « زمزم » ليستقي منه ويزيل غصته به ، أو بغيره من المياه البعيدة النائية ، فيقول :

« ويأخذ النار من تهامة ، فيوقد بها النار في يبرين وقاصية الرمال ويجاز بأكيلته (يغص بلقمته) ، في قصور فرغان (في خراسان) فيعتصر بماء المضمونة (زمزم) أو جراب (موضع بعيد ، فيه ماء) »
(من مقدمة رسالة الهناء)

أما في املاكه الخاصة ومزارعه فقد جعل لافوازييه رائده دائماً تطبيق الطرق العلمية في الزراعة وفي تربية المواشي . ولما عين عضواً في « لجنة البحث في البارود » قلب طريقة العمل التي كانت تسير عليها اللجنة قبل انضمامه اليها رأساً على عقب . فأدخل من التعديلات والاصلاحات ما ضمن بها جودة نوع البارود وزيادة المقادير المصنوعة منه ،

ثم يسمح الخيال بأبي العلاء ، فيستبق الأجيال ، حتى ليمثل عصرنا الحاضر : عصر السرعة الخاطفة وما يتلوه من عصور ، متمبهاً بما كشفتهُ العلم وما لم يزح الستر عنه الى اليوم ، فيقول :

« ان شاء المليك (الله) ، قرّب النازح وطواه ، حتى يطوف الرجل - في الليلة الدانية بياض الشفق من حمرة الفجر - طوفه بالكعبة حول « قاف » (وهو - فيما تقول الاساطير - جبل يحيط بالأرض) ، ثم يؤوب الى فراشه واليلة ما همت بالاسحار »

وثمة يظفر به خياله الوثاب ، فيتمثل في عالم الاماني والأحلام ، ما بلغه العلم بعد عصره بألف عام ، فيتخيل الاذاعة اللاسلكية التي أصبحت الآن حقيقة راهنة بعد أن كانت

تصويف « وظيفة الجامعة في العالم الحديث » نشرت في العدد الماضي ، وسقط منها سطر وبعض سطر . ودونك القراءة الصحيحة للعبارتين : ص ٣٠٢ ، س ١١٠ - ١٢٠ : « فانها نجت من ناحية التربية العلمية ولكن أكثرها لم يوفق التوفيق كله في ناحية التربية الخلقية » — س ١٧ : « واستثنى المحاضر هنا جامعتي أكسفورد وكبرج حيث يلتقي طلاب من مناطق متباعدة . وبساتير جامعات بريطانيا الحق المحاضر جامعات الولايات المتحدة »

فهرس الجزء الرابع

من المجلد الرابع بعد المائة

لا تزال الاشعة الكونية لغزاً كونياً : لفؤاد صروف	٣١٥
معارض الجمعية الزراعية الملكية وتشجيع الصناعات الاهلية : لفؤاد اباطه باشا	٣٢٠
ثورة في العلاج : للدكتور محمد رشاد الطوبى	٣٣١
استغلال الاراضي البور بشمالى الدلتا في بضع سنوات : ليوسف فارس	٣٣٨
اوائل المشترعين في الاسلام : لمحمد عبد الغنى حسن	٣٤٣
المأصر في بلاد الروم والاسلام : لميخائيل عواد	٣٤٧
القبلة الاولى (قصيدة) : ليوسف اخلال	٣٥٥
الدين والفلسفة ، التوفيق بينهما في المشرق : لمحمد يوسف موسى	٣٥٦
اختبار العبقرية : لكامل محمود حبيب	٣٦١
القوى الخلقية للموسيقى : لعثمان علي عسل	٣٦٥
هذه الحرب نضالان : لرئيس التحرير	٣٧٢
عمر الخيام كما أعرفه : لمحمود المنجوري	٣٧٥
باب المراسلة والمناظرة * تحقيق من طائفة : لآحمد محمد شاكر	٣٨٣

باب التعريف والتنقيب

١ — المسائل : « النقد والعالم » بقلم بشر فارس	٣٩٣
٢ — الكتب : « رسالة الغفران » نقلها من الانجليزية : برا كنبري . نقد بقلم ابراهيم عبد القادر المازني — « القاهرة » تأليف عبد الرحمن زكي . نقد بقلم زكي محمد حسن — « الملك الضليل » تأليف محمد فريد أبو حديد . نقد بقلم محمود تيمور — « الواحة » ديوان شعر لصالح الأسير . نقد بقلم حسن كامل الصيرفي — ثم كتب أخرى ظهرت	
٣ — المخطوطات : « درج بردي مصري من القرن الثاني ق. م. » بقلم و. ج. ودل . نقله من الانجليزية : وهيب كامل	

باب الأخبار العلمية * مصل للتعمير . غذاء الجيوش . عقار جديد ضد الملاريا . لافوازيه . عصر السرعة والاسلحي ، بقلم : كامل كيلاني	٤٠٢
-------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------	-----